AUB. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

ARAB LIBRARY

297
W44mA

المدنية والإسلام

تأليف

محمد فريد وجدي

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

58690

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

فاتحـــة

أنشئت للطبعة الاولى سنة ١٨٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد الذى اجتبيته من بين خلقك لأن يكون مستودعاً لأسرارك وناشراً لتعاليمك وواسطة بينك وبين عبادك يهديهم بنورك الأقدس إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية . ربنا اسبغ عليه حلل تكريمك وتشريفك وبلغه المقام المحمود الذى وعدته به وألهمنا السير على هديه وهدى أصحابه وهبنا اللهم نوراً نفهم به ما أوحيت إليه من محكم كلامك وجليل خطابك حتى نستوجب

رضاءك ونستحق نعماءك . واهد اللهم مثل هذه الصلاة والسلام
آله وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين إنك سميع الدعاء واسع العطاء

(أما بعد) فانه لا يخفى على كل شرقى الآن أن العلاقة
الشرق والغرب قد وصلت خصوصا فى الجزء الأخير من هذا القر
إلى درجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ وأن مصالح الطرفين قد تشابك
تبعاً لذلك تشابكا يوجب أن يتعارف الفريقان تعارفاً يمحو ما س
من التنا كر الذى كانت نتائجه دائما اضطرام نيران الشقاق بين
مما يدعو إلى التقاطع المنافى لمطالب المدنية المستقبلة . نعم أن الاتص
بين الشرق والغرب أصبح عظيماً وسيأخذ فى التزايد يوماً بعد
حتى تصير بلاد المشرق كلها عبارة عن معرض عام تعرض فيه أنو
البضائع والصناعات ويحضره الناس من كافة الملل واللغات . و
هنا لا نريد أن نبحث فيما إذا كان فى هذا الامتزاج الشديد مض
لأحد الطرفين أو فيما إذا كان مفيدا لكليهما . بل ذلك مما لا د
فيه لكتابنا هذا . ولكننا نريد فقط أن نقوم بعمل خاص لا مناص
منه على كل حال .

ما هو ذلك العمل وما وجه كونه ضروريا لا مناص منه ؟ ذلك
العمل هو تفهيم الاوروبيين حقيقة الدين الاسلامى وماهيته واثبا
أنه ضامن للانسان نيل السعادتين وكافل له راحة الحياتين . و
وجه كونه ضروريا لا مناص منه فهو أن الغربيين أصبحوا بجد
ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الأسلامى وما داموا
جاهلين بحقيقة الأسلام ومعتقدين ما يهذى به بعض كتابهم ضد

فانهم لا يستطيعون أن يروا فى ديانة محكوميهم إلا عبأ ثقيلا على عقولهم وحملا مضنياً لمداركهم فلا يقرونهم عليه إلا احتراماً لعواطفهم فقط راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه فى المستقبل .

نقول بتمام الحرية أن الاوروبيين معذورون فى تصديق التهم ضد الاسلام والمسلمين ولهم الحق فى العمل ضدها ماداموا لايرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التى اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة وزادوا عليها أشكالا من الأوهام والأضاليل تنفر منها الطباع البشرية وتنافى أصول المدنية . كيف نرجو أن يفهم الاوروبيين حقيقة ديننا وأنه الملاك الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الاسلام إلا مايرونه أمام أعينهم كل يوم مثل الصياح فى الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للادب والعقل فى الموالد التى تقام فى كثير من نقط القطر المصرى ومثل الاجتماع إلى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين والصياح الشديد بالذكر مع التمايل يمينا ويساراً إلى غير ذلك مما لو أردنا ذكره لطال بنا الكلام وخرجنا عن المقام ؟ فهل والحالة هذه نستطيع أن ننكر على من يعيب ديننا أو يلصق به شائنات التهم ؟ أليسوا معذورين فى هذا الفهم السيء مادام يحضر هذه المنكرات ويتفرج عليها عقلاء هذه الأمة بدون أن يجدوا فى أنفسهم ميلا إلى رأب هذا الصدع المتفاقم الذى لم يقتصر على جر عوامنا إلى المنكرات والآثام فقط . بل إلى الاخلال أيضا بعقيدة التوحيد النقية وهو الأمر الذى لو تأصلت جذوره فى العقول البسيطة صعب جدا اقتلاعه منها ؟

أما والعلم لو بحث باحث عن علل هذا الهبوط الهائل الذى وقعنا فيه بعد ذلك الصعود السريع ما وجدها إلا فى ترك السنن واتباع البدع . ولو كان المجال أوسع من هذا لأرينا المطالع أن البدعة الواحدة قد يتبعها جملة عوامل شريرة لا يراها إلا من ينظر للأشياء بمنظار العلم وان هذه العوامل متى رسخت قواعدها وثبتت دعائمها انبنى عليها داء من أدواء الأمم تظهر أعراضه وآثاره لكل مشاهد ولو كان هو نفسه كامنا كمون الأرقم فى جحره ولا يظهر إلا ريثما يؤانس ممن حوله العجز عن ملاشاته .

لهذه الأسباب كلها صار الشرق المتنور ملقى على عاتقه واجبان : أولهما تفهيم العالم أجمع أن الدين الاسلامى فضلا عن كونه بريئا من الأضاليل التى ينسبها اليه بعض الكتبة ومنزها عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين فانه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة حتى ينبعثوا إلى احترامه ومحبته كما يحترمه ويحبه بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه : هذا الواجب يلقى على عاتق أبناء هذه الملة الذين أسعدهم الجد بتعلم اللغات الأجنبية .

ثانيهما أن يسعى عقلاء هذه الأمة فى محو البدع التى غص بها العالم الأسلامى وصارت نقطة سوداء فى جبين الشرق وموضوع استهزاء كل من عنده مسكة من العقل : هذا الواجب أشد ضرورة من الواجب الأول وعليه يبتنى صلاح هذه الأمة وقوامها فعسانا نلتفت إليه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء والا فالعاقبة وخيمة والعهدة عظيمة . قال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران »

هذه الأفكار كانت تجيش فى صدرى منذ أربع سنوات وأنا إذ ذاك فى سن البدء فى العمل للوطن فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة فثابرت من حينها بهمة لا تعرف الملل على درس ما يؤهلنى إلى فهم حقيقة الاسلام حتى آنست من نفسى بعض القوة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس . فابتدأت أعمالى بتأليف كتاب باللغة الفرنساوية نفيت فيه عن الاسلام كل تهمة ألصقها به المفترون وأثبت الأدلة الحسية وبالاستناد على البداهة العلمية أنه روح المدنية الحقيقة وعين أمنية النفس البشرية ونهاية ما ترمى اليه القوة العقلية وان كل رقى يحصل فى العالم الانسانى ليس هو إلا تقرباً إلى الديانة المحمدية . ولم أكد أنتهى من تأليفه حتى بعثتنى نفسى إلى ترجمته الى لغتنا العربية الشريفة لكى أكون قد قمت ببعض الواجبين المطلوبين فى آن واحد

على انى كلفت نفسى تجشم المصاعب فى هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتى فيه تسلية لى على ما أضعت من وظيفة أو شهرة . كلا بل غرضى الوحيد من هذا العمل هو إقامة الحجج العلمية على أن دين الاسلام ليس بالدين الذى يتناساه ذووه أو يلوى الكشح عنه متبوعه . وأنه ليس بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية بل هى مما تزيده تثبيتاً وتمكيناً وتزيد متبعه إيماناً ويقيناً . وأنه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصاراً أولى قوة ومكانة لا أن يرى منهم اعراضاً وابتعاداً يدلان الرائى على ما الاسلام برىء منه وبعيد بعد السماء عنه .

قد كفى المسلمين اعراضاً عن دوائهم واغضاء على دائهم فلا يكونوا

كالأبله الذى يحمل الدرياق الشافى فى ردنه فيغفل عنه ثم يفغر فمه منتظراً أن تمطر عليه سحائب الأوهام من سماء الاحلام غيثاً يطهره مما به ويشفيه من أوصابه . أليس بعار على متنورى هذه الأمة أن تبقى حقائق دين الله مختبئة فى مكاتبهم فى مطاوى مجلداتها وهم مغرورون بزخارف أفكار البشر مما يسمونه بالنظريات الفلسفية حالة كون النسبة بين هذه الأفكار كلها وبين مالديهم من آيات الحكمة التى أسدلوا عليها أستار النسيان أكبر مما لا يقدر مما بين أفكار الصبيان وبين أفكار حكيم مارس الأيام وخبر الأنام وعاش مائتى عام ؟ ألا تتوق نفس شرقى متنور الى الوقوف على ذلك السر الأعظم والناموس الاقوم الذى ساد حيناً قصيراً على سكان جزيرة العرب على ما كان بهم من شظف ووحشية فأخرجهم من ظلمات الجهالة والرذائل الى أنوار المدنية والفضائل ؟ ما فائدة العلوم اذا لم تحبب الينا معاشر شبان المشرق أن نكتنه هذا السر العجيب والتطور الغريب الذى لو طبقناه على ما لدينا من المعارف المدرسية لانستطيع أن ندركه ولو بوجه عام ؟ هل فيما قرأناه من التاريخ ما يدلنا على امكان تطور أمة بأسرها وانتقالها من حالة الوحشية الى المدنية فى مدة لا تتجاوز ربع القرن ؟ اللهم لا .

ما هو ذلك التطور المدهش الذى دخلت فيه الأمة العربية فى مدة ثلاث وعشرين سنة ؟ هل هو أمر عادى يستطيع الانسان أن يدرك سره ويكتنه أمره بجولة فكرة أو القاء نظرة ؟

كانت الأمة العربية قبل الاسلام كما يعلمها كل انسان منقسمة الى قبائل عديدة وفصائل شتى كلها متوارثة الاحقاد والضغائن متأصلة الاحن والدفائن . واقعة فيما بينها فى حروب دموية وغارات جاهلية .

لا وحدة تلم شعثهم ولا جامعة توحد كلمتهم. وكانوا واقعين من جهة التدين فى أخس أنواع الوثنية . ومن جهة العادات فى أشدها بعداً عن الحياة المدنية . فلا قانون يصلح من حالهم . ولا قاعدة يبنى عليها ضمان استقبالهم . وبالجملة كانوا بمكان من الاختلال والفاقة وسوء التربية تخطاهم فيه كل الملوك الفاتحين مثل بختنصر وقيروش والاسكندر وغيرهم فماذا كان من أمرهم بعد بعثة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم بنحو بضع وعشرين سنة ؟ كان من أمرهم أن توحدت كلمتهم واتحدت وجهتهم ووجد فيهم قانون يضمن تهذيبهم ويكفل رقيهم وتركوا جميعهم عادات آبائهم التى توارثوها وألفوها حتى كادوا أن يعبدوها وخرجوا من ظلمات الوثنية إلى أنوار العقيدة التوحيدية . وقاموا من وسط وهادهم ونجادهم يحملون للخافقين أنوار المدنية ويؤسسون أركان العدل والانسانية فى جميع أرجاء الكرة الأرضية وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتدالية . وبالجملة صارت دولتهم دولة العالم بأسره بينما كان غيرهم يهيم فى وديان الجهالة ويضرب فى ليلاء الضلالة

هذا هو التطور الغريب الذى دخلت فيه أمة العرب فى سنين قلائل بعد أن كان قد مضى عليها بضعة آلاف عام وهى كما هى لم تترق عما كانت عليه قيدشبر . هل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن هذا الرقى السريع كله حصل بدون قواعد محكمة وأسس ممدنة ؟ وهل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن تلك القواعد والأسس تشابه ما لفظه أمثال أرسطو وليكورج وسولون من الحكم البسيطة والقواعد التى لو أصلحت اليوم شيئاً أفسدت فى الغد أشياء كثيرة ؟ كلا . اللهم إن المسلمين عن أسرار دينهم لمحجوبون وعن بدائعه

للاهون . فهبهم اللهم ميلا إلى ترييض نفوسهم فى حقائق دينك السرمدى وقانونك الأبدى . وهب اللهم بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما متعت به آباءهم الأقدمين إنك رحيم بالمؤمنين

وهبنى اللهم من الثبات والجلد فى هذا الموقف الحرج ما يسد خلة عجزى وقصورى عن الخوض فى مثل هذا العباب العظيم حتى أؤدى لأبناء وطنى خدمة هى أمس بحياتهم من كل ما عداها وأصلح لرقيهم من كل قاعدة سواها واجعل اللهم عملى هذا خالصاً لوجهك الكريم نافعاً لأمة نبيك الفخيم إنك واسع عظيم . أمين .

(فاتحة الطبعة الثانية)

التى نشرت سنة ١٩٠٤

(أما بعد) فهذه الطبعة الثانية لكتابنا (تطبيق الديانة الاسلامية على نواميس المدنية) الذى سلكنا فى تأليفه مسلك التحليل العلمى والاستقراء الفلسفى على قدر ما سمحت لنا وسائلنا وقوانا أمام هذا الموضوع الذى تصغر أمامه أكبر العزائم ، وتضؤل حياله أقوى المدارك ، وإنا لنحمد الله على أن أولانا جزاء جهادنا فيه نفحة من مراحمه ظهرت آثارها فى قبول الأمة له بالحفاوة وتلقيها له بالتحبيذ والاطراء . وقد تعدى الاعجاب به من العالم العربى إلى العالم التركى ثم إلى العالم الأوربى . فترجمه للغة التركية بعض رجال القضاء ، ولكنه لم يستطع طبعه لبعض الموانع التى لاتلبث أن تزول إن شاء الله وقررت نظارة معارف الدولة العلية تدريسه فى المدرسة الاعدادية

الكلية ببيرت وألقت عهدة ذلك إلى رجل من رجال المعارف السوريين المشهورين بالفطنة والدراية ولم نعهد حصول مثل هذه المزية لكتاب عصرى عربى فيما نعلم .

أما سريان هذا الأثر إلى العالم الأوربى فقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة البوسنوية بواسطة أحد العلماء المدرسين فى مدارسها وتنشره جريدة (بهار) بتلك اللغة تباعاً فى أعدادها من هذه السنة ، وعدا عن هذا فقد سرى صيت هذا الكتاب شرقاً وغرباً وطاف أكثر ممالك الاسلام ولم ينته بعد من جولته كما يتبين لنا من توالى طلبه ، وهو اليوم أسرع انتشاراً مما كان عليه من قبل مما يدل على المستقبل الكبير الذى أوتيه هذا الكتاب ، وهذا كله أثر من ، ثار تلك الرحمة الالهية التى كافأت عجزنا وقوت ضعفنا ونفعت به إخواننا زادنا الله وإياهم شعوراً بالحق وطلبا للصدق وجمعنا على كلمته العليا وصلى الله على رسوله نبى الرحمة محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فاتحة الطبعة الثالثة

ليس لدينا ما نزيده على ما قدمنا فى الطبعتين الأوليين إلا أن هذا الكتاب أعادت ترجمته إلى التركية مجلة (صراط مستقيم العثمانية) وترجم إلى اللغة الأوردية بالهند ثم الفارسية بفارس ثم التتارية بالقازان . وقد لقى هذا المؤلف فى كل قطر حله عناية وإقبالا

وقد رأينا أن نعيد طبعه للمرة الثالثة وفى ذلك دليل محسوس على ما صادفه هذا الكتاب من الناطقين بالضاد

ثم شرعنا فى طبعه للمرة الرابعة والله نسأل أن يوفنا لمراضيه ويهدينا لمحابه إنه ولى الكفاية .

مقدمات

قد رأينا أن نمهد الكلام على الاسلام بمقدمات ضرورية جداً تنشىء للمطالع فكرة عامة على حالة الانسان وتكاليف الحياة ونواميس الرقي والتأخر الذى تتجاذبه وطبيعة النظامات التى تنازعت السلطة على الانسان من قديم الزمان إلى الآن والخلاف الناشىء من زمان مديد بين العلم والدين وغير ذلك حتى لا يكون مطالع كتابنا محتاجاً فى فهم ما نرمى إليه إلى بحث ولا تنقير وليستطيع أن يرى بعينه بطريقة حسية أن الاسلام روح المدنية الحقة وأن لا مدنية إلا به أو ببعض نصوصه .

هذا وليغفر لى القراء الكرام كثرة استشهادى بأقوال علماء أوروبا فانى لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين . كلا . فان الاسلام أجل من ذلك وأعلا . بل قصدى أن أبرهن على أن كل النواميس الممدينة التى سادت على أوروبا فى القرون الأخيرة فنقلها من الظلمة إلى النور ليست بالنسبة لنواميس الاسلام إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر . فأقول والله المستعان :

الانسان

ما هو الانسان ؟ هل هو ذلك الجسم المادى الذى يتناوبه التحليل والتركيب فينمو ويقوى ثم لما يدركه الضعف والهرم يموت ويدفن فيستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام ؟ إن كان كذلك فليس هذا إلا حيواناً بسيطاً يفضله الأسد بقوته والفيل بعظم جثته والقرد بعدوه وسرعة حركته . ولما كان

له من الأهمية فى هذا الوجود ما يدلنا عليه ماضيه وحاضره . أما وأبيك لو كان الظاهر عنوان الباطن فى كل شىء لكان شأن الانسان فى هذه الطبيعة الكثيرة العوامل شأن الريشة الخفيفة بين تيارات الأعاصير الشديدة يدفعه تيار ويرده آخر حتى ينتهى وجوده على أسوأ ما ينتهى إليه وجود الضعيف مع مغاليه الأقوياء . كلا إن فى الأمر لسرا مكنوناً ورمزاً مصوناً كم فى العلم به من فائدة تهدينا فى الاستقبال وفى الجرى عليها ضمانة لحسن المآل .

أدرس الانسان من مبدئه ثم انظر إليه فى وقتنا الحاضر ترى عجباً يذهب بالعقول وسرا تعجز عن اكتناهه الفحول : ترى آيات تدهش الأفكار وتستوقف الأنظار . ترى ماذا ؟ ترى كائناً عارى الجسم لين البشرة رقيق الحاشية ضعيف الساعد عديم السلاح ألقى به فى هيجاء هذه الحياة وحيدا فريدا وقذف به فى تيار هذا الوجود طريداً شريداً يرى بعينيه الجبال الشم فيفرق من خيالها والغابات الفيحاء فيذهل من تقلب ظلالها والقبة الزرقاء بنجومها الزهراء فتهيبه سعتها ورفعتها . ويسمع زئير الضياغم فى الغابات فيكاد يصعق منه فرقاً أو يتميز رهباً وهو بين تلك الدهشة والوحشة يخزه الحر بلفحه والبرد بنفحه ويؤلمه الجوع بحدته والعطش بشدته كان هذا حال الانسان فى مبدأ أمره فماذا ترى ن حاله الآن ؟ ترى أن هذا الكائن الضعيف قد قاوم كل عوارض الطبيعة المسلطة عليه بجلد وثبات مدهشين وصارعها على قوتها وبطشها مصارعة البطل المغوار بقوى ليس فى زنده مستقرها وجلد ليس فى جسمه مركزه حتى تغلب عليها وهو لم يكتف بذلك . بل أسرها أسرا واستخدمها لأمانيه وآماله كما يستخدم الملك المنصور أسراء الحروب . ترى ذلك الكائن على مابه من لين وضعف قد أظهر من

ذلك اللين صلابة واجهت الجبال الشم فنسفتها نسفاً وعدت على الصخور فسحقتها سحقاً وتوجهت للحديد المتين فأذابته إذابة وأبدى من ذلك الضعف قوة اقتادت القساور صاغرة بين يديه فتراها تخضع إليه وتلعب عند قدميه لتقر عينيه !

هل بعد هذا التدبر العلمى يقال أن الانسان هو ذلك الجسم المادى الضعف ؟ كلا بل لا بد أن يكون ذلك الجسم الطينى غلافا لسر مكنون إن غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره . ذلك السر هو معنى الانسانية وواهب الميزة للانسان على غيره من أصناف الحيوان . نعم هذه بديهة لا تحتاج إلى إثبات ، ولكن ماهى تلك المعنى الغريبة التى بسكناها فى ذلك الجسم المادى جعلته ملكا لجميع الكائنات الأرضية وسلطاناً يتصرف فيها تصرف المالك الشرعى فى ملكه ؟

لو كانت تلك المعنى الانسانية مما تقع تحت سلطة المشاعر وتدخل ضمن دائرة المحسوسات لسهل على الباحث درسها درساً مدققا . أو لو كانت هى من طبيعة معنى الحيوانية محدودة الغايات والانفعالات لكان المعانى لاكتناه أسرارها لايكلف نفسه من المشاق ما يربو على ما يبذله الباحثون عن طباع النمل أو الميكروبات . ولكن كان أمرها بخلاف ذلك على خط مستقيم . فانظر الى الانسان نظرة تمعن تره جامعا للمتناقضات جمعا يصعب معه تحديد خصيصة من خصائصه بوجه التحقيق شاملا للمتعاكسات شمولا تضيق عن حصر آثاره قاعدة كل تدقيق كأن هذه المعنى الانسانية بحر لايدرك غوره مسبار العقول ولا تنتهى إلى سواحله خطرات الأفكار البعيدة المرامى .

اذا نظرت الى الانسان من جهة أوصافه المكتسبة فيه فلا تستطيع أن

تنتهى إلى رابط يربطها ولا ناموس يضمها . فبينما ترى رجلا قد عرف قدر الاعتدال وأدرك سر الكمال فقاس أمياله على مقياس الروية والتدبر ووزن أعماله بقسطاس العدل والتوسط ترى عن يمينه رجلا ثانياً سئم الدنيا نسآمة لم ير معها مطعماً فى لذة ولا مطمحاً فى ثروة وكره اليه العمران كراهة حببت اليه سكنى قذفات الجبال وحيداً فقيراً لا يملك فتيلا ولا نقيراً وأخذ يناجى ربه أن يزيده كراهة فى دنياه وأن يكافئه على ذلك برضاه ، ثم ترى عن يسار ذلك المعتدل رجلا ثالثا سحرت الدنيا له سحراً أعماه عن رؤية الفارق بين المحاسن والمقابح فأطلق لنفسه عنان الطيش وأفتكها من قيود العادات والتقاليد وأخذ يميل مع الشهوات حيث تميل ويتقلب مع اللهو حيث يتقلب وبينما ترى رجلا قد نزل عن رتبة الحيوانات جهلا وغباوة حتى كاد يساوى الصخر جموداً وخموداً . ترى بازائه عالماً غزير المادة واسع الاطلاع منهوماً بكشف الأستار عن وجوه الاسرار لا يرى اللذة إلا نظرية يؤسسها أو ظاهرة طبيعية يدركها . وبينما ترى شخصاً استحوذ عليه حب الحياة حتى أورده موارد الجبن المخجل يظن الخيال طالبا يطلبه أو عفريتا يرعبه . ترى تجاهه شجاعا يطربه وقع البيض على الخوذ ودوى المدافع فى جدران الحصون ويروقه نظر دماء الأقران تسيل على الأرض كالأرجوان : قل لى بعيشك هل يمكن لمن نظر الى حالة الانسان من حيث قبوله لسائر الأوصاف الممكنة أن يدعى حصرها فى قاعدة أو ضمها فى رابطة واحدة

ليس لأميال الانسان حد فيقف عنده بل كلما وصل الى غاية تاق الى أبعد منها ووجد من نفسه المكنة على بلوغها والقدرة على إدراكها حتى إذا

نالها كان فرحه بحوزها باعثا له على الاستزادة منها ومصغراً فى عينه ما كان فيه من قبل .

مضى زمن اتهم فيه مكتشف أمريكا ومخترع التلغراف والآلة البخارية بالجنون لظن الناس استحالة ما كانوا يهمسون به فى الآذان همسا . وجاء زمن يقول فيه علماؤه أنه سيأتى وقت يكون الفرق فيه بيننا وبين أبنائه كالفرق بيننا نحن وبين أخس الحيوانات .

هل وقف الطماح بالانسان عند هذا الحد المدهش ؟ كلا ان الطمع الفكرى بلغ عند الانسان مبلغاً نظر به الى حالة العلم الآن فلم يرقه شىء فيه وصغر له الطموح عظم ما نال عقب تلك الجهالة الأولى فنطق بلسان أحد علماء أمريكا قائلا : اننا نمتاز عن أسلافنا فى العلم بكوننا علمنا أننا جهلاء . أمامهم فكانوا يعتقدون أنهم يعلمون شيئا ! ليت شعرى ماهذه المعنى الانسانية التى تشعر بعظمتها وجلالة قدرها لدرجة لا تعد ماهى فيه الآن الا جهالة ظلماء ؟ فهى تأنف أن تغتبط بما وصلت اليه من سائر الأسرار وترى أن أمامها غاية لاتحدها الأوهام ولا تصل اليها مرامى الافكار .

أما نحن فلا يسعنا بعد هذا الامعان إلا أن نحكم عن بينة بأن الفارق بين الانسان والحيوان ليس هو النطق كما قال ارسطو ولا هو التفكر بالقوة كما مال اليه فلاسفة العرب ولا هو التدين كما ذهب اليه المسيو كاتر فاج . بل هو قبول الانسان للترقى العقلى والاخلاقى الى ما لانهاية له ووقوف الحيوان فى درجة لا يتعداها فتكون نسبة الحيوان الى الانسان كنسبة الادراك المحصور الى غير المحصور وشتان ما بين طرفى هذه النسبة .

إن كان لابد من الاستشهاد بقول عالم أوروبى فى مثل هذه البداهة فاليك ما قاله العلامة (لاروس) فى دائرة معارفه الكبيرة بعد أن تكلم على رقى الانسان ما نصه : « ان من التهور الشائن وضع حد لرقى الانسان » .

وقال المسيو (رينان) المشهور فى كتابه تاريخ الأديان : « أمعنت النظر فى حال الانسان فوجدته وقفا من الأوقات يبذل وسعه ويستنفذ قواه لكى يتوصل إلى إدراك السبب الذى لانهاية لحدود سلطانه ولكى يعلو على هذا العالم المادى . أفليس هذا دليلا محسوسا على أنه بسمو محتده وبحسن حظه ممتاز عن هذه الأشياء المادية المحدودة ؟ لاشك أن مشاهدة هذا الجهد من النفس لكى ترقى الى السموات العلا تبعث فى المشاهدة الميل الى احترام النوع الانسانى الذى يجدر به هو نفسه أن يفتخر بعظمته افتخاراً » . انتهى

ولكن ما قضى الله للنوع الانسانى أن يكون أهلا لاعتلاء درجات كل ما يتصور من الفضائل كذلك حكم عليه بأن يكون قابلا للنزول الى أخس دركات الرذائل : وفى درس تاريخ الانسان أكبر عبرة لمن يريد أن يتفكر .

خلق الانسان على تمام الجهل بالكون الذى قذف به فيه بخلاف الحيوان فان الخالق جل شأنه وهبه من الالهام أكبر مرشد له لنيل ما يكفل له حياته ويحفظ لنوعه بقاءه فتراه لا ينساق إلى الافراط ولا التفريط لدرجة تؤدى به ونشأ مطبوعا على الأعمال التى تهيأ له راحة حياته من بناء مسكن واعداد محل لائق لوضع صغاره فيه إلى غير ذلك من الأمور التى يندهش منها الانسان إذا عنى بدرس علم الحيوان . أما الانسان فقد جرد من كل هذه الخصائص بالمرة وعوض عنها مزية الحرية فى التصرف بالقوة الفكرية تصرفا غير محجور .

وجد الانسان وهو شاعر على ما به من ضعف وعجز بأنه مليك كل الكائنات الأرضية وزهرة هذه العوالم الكونية فلم يثنه ضعفه وفاقته عن التطلع للنقطه الرفيعة التى أعدت له والتى يرى مثالها فى وجدانه يتلألأ آناء ثم

يختفى آنا لينشأ له بين الرجاء واليأس باعث قوى على أعمال مواهبه وإجهادها والجرى وراء تلك المنصة العلياء التى تحس بها نفسه إحساساً سرياً بدون علم بماهياتها ولا كيفيتها . اختلف أفراد النوع الأنسانى على حسب الأمزجة والأمكنة والأزمنة فى ماهية أمنية النفس البشرية وهم كل منهم على قدر ما خولته المكنة وأمكنته الفرصة بالبحث عن تلك الرغبة الروحية فظنها بعضهم فى الملاذ البدنية والشهوات البهيمية فدأبوا على اختراع أنواع الزينة ومهيآت الطرب فنشأت من ذلك الصنائع الجميلة على اختلاف أنواعها وتباين أصنافها مع ما استلزمته فى أثناء البحث عليها من قواعد الصنائع النافعة والاعمال المفيدة . وزعمها بعضهم فى علو الكلمة وبعد الصيت فجد فى تدويخ البلاد وتذليل العباد فنشأت من ذلك الحروب والغارات مع ما استلزمته من معارف ومعلومات ومن صعود لبعض الأمم وهبوط للبعض الآخر مما له ارتباط قوى بتدرج الشعوب فى مدارج التقدم والحضارة . وحسبها غيرهم فى ترويض النفوس وتهذيب الطباع وحرث القوة الفكرية واستثمارها فنشأت من ذلك علوم الأخلاق والأبحاث العلمية والعملية والمسائل الفلسفية مما كان له أثر عجيب فى تنمية المادة العقلية وتوسيع نطاق القوة الفكرية . وعلى هذا النسق من اختلاف المشارب والوجهات فى البحث عن السعادة النفسية المتمناة تم للانسان من الرقى ما بلغه الآن . وسيستمر هذا الانفعال النفسى وراء هذه السعادة المرجوة حتى يتم الابداع الذى أراده الله أن يتم على يد هذا النوع الانسانى

فى أثناء هذا التدافع المدهش كان الخالق الحكيم جل شأنه يرسل رجالا هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام فيوحى إليهم الطريقة الملائمة لعصورهم

والتى لو انتهجها الانسان لوصل إلى سعادته من أقرب الطرق الموصلة إليها. فكان يتبعهم من الناس من قدر الله أن يكون على أيديهم نقل النوع الانسانى من حالة إلى أرقى منها فيستمرون عاملين بما أخذوه من نبى زمانهم برهة قصيرة ثم يعودون إلى تدافعهم الأول بعد أن يحرفوا نصوص كتبهم تحريفاً يجعلها غير صالحة لقيادتهم وضبط أهوائهم ولا يزالون كذلك حتى تهيئهم نواميس الحياة إلى صعود درجة أخرى من سلم المدنية والترقى فيرسل الله تعالى إليهم رسولا من أنفسهم يكون فى مقدمتهم عند اعتلائهم تلك الدرجة الجديدة . وهكذا كان شأن الأمم كافة من التجالد والتدافع حتى تم نمو العقل الانسانى وصار مقتدراً على تمييز الغث من السمين فأرسل الله سيد الأنام وخاتم الأنبياء محمداً صلى الله عليه وسلم بالشريعة الخالدة والدين الأبدى . ولا يهولنك ماترى من آثار التجالد الفكرى والتضارب العقلى بين سكان هذه الكرة ولا تستنتجن من ذلك قرب ظهور نبى آخر فان كل ما تراه حاصلا أمامك من هذه الجلبة والصياح والتجاذب ليس هو إلا إعداداً لأبناء القرون الحاضرة والمستقبلة إلى فهم حقيقة الاسلام وإدراك أسراره . نعم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

تكاليف الحياة

الحياة وما أدراك ما الحياة : حرب عوان وأهوال تشيب لها الولدان وتخضع لها الرؤوس ذوات التيجان . يتساوى فيها المليك والمملوك والسرى والصعلوك والجهال والعلماء والأغنياء والحكماء . بل هى مورد تتزاحم حوله النفوس ولا تفوز بحسوة منه إلا بعد أن تصادم العظائم وتتجشم الدواهى

الدواهم وهى حسوة ممزوجة بالأكدار مشوبة بالأوضار يغص بها حاسيه غصة تعجز الطب والأطباء وتتعاصى على كل دواء.

حياة الأنسان وما أدراك ما حياة الأنسان : مدة قصيرة الأمد كثيرة الهم والكمد يكون الأنسان فيها هدفاً لسهام الحوادث وعرضة لنبال الكوارث لا تغنى عنه الجنن الواقية ولا الدروع المضاعفة ولا الحصون الشامخة ولا البروج الشاهقة. سهام ونبال تلازمه من يوم ميلاده ملازمة العرض للجوهر فيشب الأنسان ويشيب وهى لاتفتر عن وخزه ولاتقصر عن طعنه حتى يسود الأنسان أن لو كان من بعض الحيوان ولو يمن لعلو مكانته بما تشيب لهوله نواصى الأجيال ولو تستطيع أن تحتمله شوامخ الجبال، كلا. « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الأنسان ».

لست أيها الانسان ملكا فتكون بمعزل عن دواعى الشهوات ومنغصاتها ولست حيواناً فيضعف فيك الشعور بتأثيرات الحياة وويلاتها بل قضى خالقك جل شأنه أن تكون بين هاتين الرتبتين فى منزلة أن حفظت لنفسك فيها حق حرمتها خدمتك الأملاك ورفعتك على الأفلاك ولو قصرت فى واجب نفسك وخضعت لسلطان البشرية فيك لنزلت إلى منزلة من الضعة يعافها أخس الحيوانات ويأنف مما أنت فيه من السوآت. هذا حظك قد خطه بارىء النسم من القدم وأودع فيك من الاستعداد والقابلية ما يسمو بك إلى المحل الذى يليق بك من الكمال والرفعة. وأسكن فؤادك عقلا يضىء عليك حوالك الأحوال ويفكك عنك أغلال الأهوال لو أحسنت استشارته وأجريت اشارته. ولم يخلق ماتراه أمامك من المصاعب والمصائب

لتعذيبك على غير جدوى أو لكى يسمع عويلك من البلوى ، بل تذكرة تقيمك من عثرة وتحميك من كبوة وتزعك من هلكة : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » . نعم ليس ماتراه أمام عينيك من الأهوال أو ما يعترض أمانيك من تقلبات الأحوال عقبات أمام سعادتك أو موانع دون أمنيتك. فلا تكن كالطفل العاصى يزعه أبوه عن البطالة فيظنه قاسياً عليه غير حان اليه . كلا : « الله أرأف بعباده من هذا العصفور على فرخه » . حديث شريف

سبق أن بينا فى مقالنا السابق أن الانسان مستعد لأن يرقى أوج الملكوت الأعلى ومستأهل لان يتسنم هذه الرتب القصوى مما لا يحده وصف الواصفين أو تخيلات الشعراء المداحين . فاذا تقرر لديك ذلك فما هى الوسائل التى يجب أن ترفعك من معهد هذا الطين الميت إلى محتد ذلك النور الحى ؟ أتريد أن تنزل اليك ملائكة من السماء فيقودونك بيدك إلى ما أعد لك من مقاوم الشرف ومنازل الرفعة ؟ أن قلت نعم فما الفائدة إذن من إيداع الخالق فيك هذه المنح العلوية العظمى مما لو التفت إليه قليلا ولو قدر التفاتك الى نقش الدينار ورسمه لعلمت أن فى فؤادك كنزاً لو أنفدت عمرك فى تدبر ذخائره لما وصلت إلى عشر عشيرها ؟ كنز يصغر اليك شأن الذهب الابريز والجوهر العزيز ويبعثك قسرا عنك لالتماس الرتبة التى تليق بعظمتك من هذا الوجود ويريك أن سفاسف الأمور ودنايا الأعمال ليس مما يجوز لمثلك أن يعيرها فكرا أو يمر بها مرآ : « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع » . حديث قدسى

أيه أيها الانسان ! أنك عن نفسك لمحجوب ومن أشرف مزاياك لمسلوب . ليس مثلك من يهتز لخرافات الشعراء فيذم معهم الزمان والمكان

ويتباكى على ما سيكون وما قد كان . ليس مثلك من يستميت لكسرة أو يقتل صديقه لأجل إبرة أو يبيع رداءه فى سبيل الخمرة ! ما هذه الغفلة ! ماهذه السكرة ! بل ما هذا الموت ! أضعت أيامك فى تخيل المصائب والخشية من النوائب وصرفت همك فى أوهام يستنكفها الحيوان ويمجها العرفان ؟ هل يليق بمن يحصر الكون بكواكبه والعالم بعجائبه فى فكره وهو جالس مع صاحبه أن يتدنى إلى درجة من الاستكانة والمهانة يضيع بها تلك المواهب العظمى والمنح الكبرى لخزية يفعلها أو غيبة يتلمظ بها حتى إذا تجلت له نتائج تهامله وابتدأت أن توقظه من سباته ارتعدت فرائصه رعباً وارتجت مفاصله رهباً وأخذ ينادى وامصيبتاه ثم يأخذ يبكى بكاء الثكلى ويذرف الدموع الحرى مغمضاً عينه عن النظر وبصيرته عن تبين العبر فيضيع بجهله مزية ما يرفعه إلى محتده الأعلى ومركزه الأسمى ؟ « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »

إن الذى تسميه مصائب أيها الانسان ليس هو إلا يد الجبار الأعلى تستلفتك إلى الغاية التى خلقت لأجلها وتبعثك من جدث الجمود الذى أوقعك فيه تماديك فى الغى المزرى مع ما انطويت عليه من الغرائز الشريفة والنحائز المنيفة . نعم إن الذى خلقك من الطين الأصم وأراد أن يعلو بك إلى أعلى مراكز الكمال سلط عليك عوامل ثلاثة لو تبصرت فى مصاعبها وتدبرت فى أسبابها ومسبباتها لرأيت أن طريق السعادة التى تنشدها وتموت بحسرة دونها هو بين يديك وامام عينيك وما عليك إلا أن تجرى على سننها القويم وصراطها المستقيم لتصل الى غرضك العظيم : « انا هديناه السبيل »

ما هى تلك العوامل الثلاثة المهمة ؟ هى الطبيعة ونفس الانسان وبنو نوعه . أما الطبيعة فهى محتدة جسم الانسان بها ترتبط سعادته المادية ومنها

ينبوع راحته الحسية . قذف الانسان من يوم خلق الى هذا العالم المادى فتلقاه بنواميسه الكثيرة وعوارضه الشديدة وهو كما وصفه العلامة (لينيه) عارى الجسم وبدون سلاح فوخزته الشمس بحرارتها والأرض برطوبتها والسماء فأمطارها والصحارى بسمومها وأعاصيرها والوحوش بأنيابها وأظفارها فصار الانسان بين هذه العوامل هدفاً لسهام لايجن بقية منها ولا وسيلة تبعده عنها . فلو كان كغيره من الحيوانات محدود القوى الادراكية لما أمكنه أن يعيش طرفة عين ، ولكن الله جل جلاله قد قذف به إلى هذه الأهوال بعد أن منحه من المواهب ما يستطيع بها أن يتغلب على الطبيعة ويأسرها فلم تفل عزيمته ولم تثبط همته بل قاتلها بسلاح فكره الحديد وابتكر من الصنائع الأولية ما يحميه منها وقتاً ما . ولم يزل يجد ويجتهد فى تحسين تلك الطرق الواقية حتى ارتقى شأنه شيئاً فشيئاً فصار يتمكن من بناء البيوتات بعد سكنى المغارات ويحرث الأرض ليستخرج خيراتها بعد أن كان يتغذى بجذور الأشجار وأوراقها وهكذا ، ولكن الطبيعة لم تغفل عنه طرفة عين بتقدير العزيز العليم كى لا تركد همته وتسكن حركته فصار كلما أتقن عملا عدت الطبيعة عليه فيلتجىء إلى تحسينه ولم يزل ذلك التدافع بيننا وبين الطبيعة إلى اليوم

كان من نتائج هذه الحرب العوان ارتقاء الانسان مادياً للدرجة التى نرى بها لندن وباريس من عجائب الصناعات وغرائب المكتشفات مما لو حدث به الشرقى لرمى محدثه بالجنون لعدم تصوره ما يقول هذا الارتقاء يستلزم بالطبع ارتقاء أدبياً عظيما لأنه لا يتأتى إلا بأعمال القوة العقلية وإجهادها وهذه القوة هى كما لايخفى محتد كل الفضائل البشرية

فانظر بأبيك إلى ما كان يسميه آباؤنا مصائب وجوائح كيف بعث الانسان إلى الارتقاء وحسن الحال وجذبه رغم أنفه من طور البهيمية إلى طور الانسانية ؟ هل بعد هذا يصح أن نذم تلك المصائب ونتبرم منها بعد

علمنا بأنها السائق الوحيد للفكرة الانسانية إلى البحث عن أسباب السعادة والرفاهية ؟ أما يجب علينا بعد هذا أن لا نجعل جزعنا من المصائب الطبيعية غشاء كثيفاً بيننا وبين استنباط الطرق إلى تخفيف وطأتها واستئصالها مرة واحدة؟ فاذا كان فى مكنة الفكرة البشرية أن تخترع آلة تجتذب بها الصواعق صاغرة وتلقى بها إلى أسفل سافلين ، فكيف لا يكون فى مكنتها أن تبتكر طريقة بسيطة تخفف من ويلات دودة القطن التى يقف فلاحنا أمامها صاغراً يضرب صدره ويمزق نفسه ؟ رزقت الأمم الأوروبية حسن التبصر فى جوائح الطبيعة فتراهم يتربصون لاحداثها بالمرصاد فكلما ألم بهم حادث هبوا يبحثون عن طريقة لازالته أو تقليل خطارته ولا ينامون عن مشروعهم حتى يحققوه علماً منهم بأن فى الفكرة الانسانية من الأساليب مايضمن حياة مستقبلهم كما ضمن حياة ماضيهم : هذا هو سبب من أسباب رقيهم المدهش الذى قاموا يسيطرون به على الشرق سيطرة الرفيع على الوضيع . فما لنا عن التذكرة معرضون ؟

أما العامل النفسانى على الرقى الانسانى فهو من أقوى العوامل وأكثرها تأثيراً ولا يمتاز عن سابقه الا فى كونه معنوياً . يشعر كل انسان فى نفسه بأن وجدانه ميدان فسيح لشهوات تتوزعه وأميال تتنازعه وآمال تتقاسمه مما لا يستطيع أماتته ولا أبطال تأثيره عليه مهما بذل من المجهودات فى ذلك السبيل . ليست تلك الشهوات مما تنصاع لقوانين المحسوسات حتى يستطاع وزنها بقسطاس الاعتدال . ولا هاتيك الأميال مما تقبل التحديد حتى يرى الانسان بعينه النقطة التى هو مسوق اليها قسراً ولا تلك الآمال مما تخضع لأحكام القنوع حتى يتسنى له أن يوقفها عند نقطة مخصوصة . بل قضى الحكيم المختار أن تنطلق هذه العوامل المعنوية من كل قيد وأن تتجاوز كل حد وأن تشذ عن كل رابطة حتى صارت بما أودعت من روح الحركة

والتأثير كأنها تيارات متعاكسة تتصادم فى فؤاد الانسان تصادماً يهوله مرآه ويرعبه منظره ولو كان هو نفسه محتدها ومستقرها

انظر إلى ذلك الرجل الرث الهيئة الخلق السربال الجالس فى ظل تلك الدوحة ، أتظن أن سكونه الظاهرى دليل على سكونه الباطنى ، أو أن حالته من الفاقة نهنهت وجدانه عن تلك المطامح السرية والمعامع الضميرية ؟ كلا . إن حاله ذلك لم يقلل فيه تلك الانفعالات النفسية عما هى عليه عند أكبر ملك جالس على أسمى أريكة لأمة متمدنة

وجد هذا الانسان الضعيف على سطح هذه الكرة الأرضية وهو كما هو شيء غير محدود فى جسم محدود أو بحر لا نهاية لسواحله فى فؤاد لا يزيد عن الكف مقاساً فلم يستطع أن يطمئن إلى شيء من الأشياء المحدودة أو يركن إلى كائن من الكائنات المشهودة إلا ريثما يتحقق أن ذلك الشيء ليس مما يصلح أن يكون سفينة له يقطع على ظهرها عباب ذلك البحر الزاخر الذى يسمع دوى أمواجه داخل فؤاده . نعم بذل الانسان وسعه من القدم فى التجسس على ما لا تأنس نفسه إلا به فأم كل طريق وقاوم كل تيار وسلك كل سهل واقتحم كل حزن ونزل كل غور وصعد كل نجد وتوقل كل رعن وهو بين كل هذه الهمم الشديدة يصادف مانعاً فيرده أو عقبة فتصده فيزيد خبرة بماهية السائق له والمسوق إليه فيصلح من خطأه ويقلل من غلطه فيترفع قليلا عما كان عليه فى سابق بحثه فتقابله الجوائح وتصادمه البوائق فيعلم أن غرضه أسمى من ذلك . وهكذا حصل حتى تم له أن ينتقل من دور التسفل فى البحث إلى دور الاستعلاء فيه . فصار الآن كلما طالبته النفس برغبتها ألقى بنظره إلى السماء بعد أن كان فى السابق يلقى به إلى الأرض .

هذا العامل النفسى له فضل عظيم فى حفظ الانسان من الخضوع لمؤثرات البهيمية فيه فلم يقع فى الوحشية التى لو اتصف بها لكان كائناً يتبرأ

منه ويؤنف أن ينتسب الى نوعه . وهذا العامل نفسه هو الباعث الى تأليف علوم الأخلاق والبحث فى الآلهيات والنفسيات والمحرض على الجد فى علوم الحكمة مما كان ولم يزل له أثر عظيم فى تحسين حالة النوع الانسانى

أما العامل النوعى فهو نتيجة العامل السابق ولم نسمه عاملا قائماً بذاته إلا لما أنتجه من الانقلابات الشديدة فى النوع البشرى وفى الفرد الواحد

قلنا أكثر من مرة أن الانسان ممتاز عن سائر الكائنات بانطلاق أمياله وشهواته عن القيود ومجاوز انفعالاته لكل ما يتصور من الحدود بخلاف الحيوانات فانها مطبوعة على الانصياع لنواميس ثابتة وقواعد عامة لاتتعداها ولن تستطيع ذلك . إذا علمت هذا فقل لى بعيشك ما كان يستحيل إليه حال الانسان مع انطلاق خصائصه عن القيود لو لم يصادف فى حياته أموراً تجبره رغم أنفه الى تحديد نقطة الاعتدال فيها وإيقاف أمياله عند تخوم التوسط فى سائر مراميها ؟ أما ترى معنا أنه كان يتلاشى وجوده أو يبقى ولكن مجذوباً مع تيار واحد يحسب أنه سيوصله إلى غاية يقف عندها ويتملى بسعادته فيها فيخونه الحسبان فيظل مقذوفا إلى حيث يلاقى حتفه على أسوأ حالة ؟

إذا اعتقد رجل أن السعادة فى الغنى وأنواعه غير محدودة فى وجدانه ونهاياته غير مرتسمة فى جنانه ، فماذا يكون حاله فى هذا السيل المميت للعواطف البشرية إذا لم يصادف أمامه مانعاً يصده ليقف قليلا فيرجع الى نفسه رجعة يفهم بها أنه لو عاش ألف عام دائباً على سلوك سبيل الثروة لما وصل الى غاية مما يؤمله وأنه لو صار قارون زمانه مالا فلن يكون أسعد أهله حالا

نعم ان الذى خلق الانسان وأطلق مداركه من كل قيد خلق بازائها موانع تصدها لتزعها عن الافراط كما وضع وراءه دوافع تصيح به لتردعه

عن التفريط . فأما تلك البواعث الدافعة له إلى الامام فقد درسناها فى الفصلين السابقين . وأما الموانع التى تعترضه لتجبره إلى الاعتدال فى مطلبه فأهمها مقاومة بنى نوعه ومزاحمتهم له فى كل رغائبه : هذه المزاحمة تنقسم الى قسمين عظيمين . أولهما مزاحمة أفراد المجتمع التى يعد الرجل فرداً منها . والثانية مزاحمة الجمعيات بعضها لبعض فى التسابق الى ما يقيم كيانها من أمور هذه الحياة . هذان القسمان من التزاحم المعبر عنهما بتنازع البقاء هما السببان الرئيسيان اللذان علما الانسان رغم أنفه ثلاثة أمور عظيمة جداً هى نظام حياة الأمم ومساكها :

أولها عدم الغفلة عن الحق لأن الأهمال فيه على حسب قوانين الحياة مسقط له إسقاطاً كلياً.

ثانيها معرفة قواعد العدل لأن الانسان بالجوار يجر اليه أضغان أمثاله فتسوء حالته ويحرم من سائر حقوقه .

ثالثها احترام النوع الانسانى بأكمله . هذه الثلاثة أمور كما هى قوام أعمال الأفراد هى أيضاً نظام الأمم العظيمة المتمتعة بنعمة الاستقلال . فان الأمة المستقلة إذا أهملت مجاراة جاراتها سبقتها الى مطالبها وحرمتها من مقومات حياتها ولا يعد هذا ظلماً منهن بل تعتبر هى الظالمة الأثيمة باهمالها استعمال خصائصها المودعة فيها . ومن يتأمل فى حالة الجمعيات البشرية المختلفة ير العجب العجاب من آيات المسابقة . هذا من حيثية الأمر الأول . وأما الأمر الثانى وهو العدل فان من أقل خصائصه فى الجمعية حدوث الاطمئنان المتبادل على الحق والعرض وعدم الرهبة من العدوان عليهما جرياً مع الأهواء . ولا يخفى ما ينبنى على هذا الاطمئنان المتبادل من التماسك بين سائر الأفراد والتضافر فيما بينهم على السعى الى تحقيق غرضهم المشترك وهو سعادة المجتمع . ومن يرد برهاناً محسوساً على حسن نتائج العدل فليتدبر فى

أحوال الجمعيات الحاضرة والغابرة ليغنى عن كثير من التطويل

وأما عاطفة احترام سائر أفراد النوع الانسانى فانها ما انبثت فى أمة حية إلا وقللت من حدة الأسلحة الموجهة إليها بتأثير تنازع البقاء وكسرت من نصال مجاوريها الطامعين فيها وأبطلت من عرامهم وشرتهم لدرجة تطمئن بها على نفسها أكثر من اطمئنانها لقوتها وعظمتها

لنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول : إن هذه الثلاثة العوامل الرئيسية (الطبيعة ونفس الأنسان وبنو نوعه) مع النواميس الكثيرة الثانوية التى تستلزمها هى بواعث الرقى الأنسانى قدرها الخالق جل شأنه تقديراً لأجل أن ترفع الأنسان رغما عنه من درجة الوحشية إلى درجة المدنية أو السعادة الأنسانية وهى عينها بحث الباحثين وغرض العلماء المحققين من منذ آلاف من السنين إلى هذا الحين .

الدين والعلم

إن المنابذة بين رجال الدين و رجال العلم ليست بقريبة العهد فان التاريخ يدلنا على أنه من منذ أزمان بعيدة جدا كانت المشاحنات والمشاغب قائمة بين الطرفين فى أغلب الأمم . إلا أن العصور المتقدمة كانت تمتاز عن عصرنا الحاضر فى قساوة تلك المشاكل وصرامتها . فان كثيرا من فلاسفة الأمم حكم عليهم بالأعدام بالسم أو الحديد أو النيران لمحض كونهم قاموا ينيرون عقول مواطنيهم من الأوهام التى تحط بشأن العقل وتطفىء من نوره. أما فى عصرنا الحاضر فان العلم على ماقاله المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية فرنسا وأكبر علمائها الكيماويين قد نال حريته المطلقة وصار لا يخشى سيطرة الدين عليه . لقد صدق المسيو (برتلو) فانا نتلو مؤلفات القوم العلمية فلا نرى إلا طعناً على الأديان وتنديدا بها يدلنا على أن القوم قد مرقوا

منها مروق السهم من الرمية ولم يكفهم ذلك ، بل أخذوا ينذرونها بالانمحاء العاجل لعدم انطباقها على النواميس المرقية للانسانية ولا على القواعد العلمية .

ألف المسيو (بنجامن كونستان) كتابا سماه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) بحث فيه عن العلل التى أنهكت جسم الجمعيات البشرية من جراء الاعتقادات الباطلة ثم حكم بأن مداواة هذه العلل لا تتأتى إلا بحرية الضمير وحرية الاعتقاد والحرية الشخصية وبالاختصار كل الحريات الضرورية ثم قال : « بهذه الطريقة تنتقى الأديان عن أدرانها ولكننا لا نخال أن ذلك يتحقق مطلقا لاعتقادنا أنها لن تترك شيئا من أسسها . ولكن بما أن هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت انمحاء الديانات وزوالها » . نحن نعجب للغاية من كون مثل هذا العالم المشهور يحكم على جميع الديانات بدون استثناء بالانمحاء والزوال حال كونه لم يدرسها كلها طبعاً لأنه لو درس الاسلام الأول ولو درساً سطحياً لتحقق قبل كل شيء أنه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها . ولكننا فى هذه المقالة سنقتصر على ايراد أشد المطاعن على الأديان وجهات الضعف فيها نقلا عن أشهر علماء أوربا ليقف قارئنا على اتجاه الأفكار الأوربية العلمية وليتحقق بعد أن نورد عليه أسس الاسلام أنه هو حقيقة أمنية النفوس وحظية الأرواح

قلنا أن المسيو (كونستان) قد أنذر جميع الأديان بالزوال والآن نقول أنه علل ذلك تعليلا فلسفياً فقال : « إن كل قاعدة مهما كانت نافعة فى الحال فلا بد أن تكون محتوية على جرثومة تعارض الرقى فى الاستقبال لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلا عديم الحراك يأبى على العقل البشرى اتباعه فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتطهره . إذا حصل ذلك ينفصل فى الحال الاحساس الدينى عن تلك القاعدة المتحجرة ويطلب سواها

من القواعد التى لاتجرحه ولاتحرجه ولا يزال يضطرب حتى يصادفها » .

درس القوم الانسان درساً مدققاً واهتدوا إلى الطريق الذى يجب أن يسلكه لكى يصل إلى سعادته وعلموا أنه لن يستطيع أن يؤدى الوظيفة المهمة التى أعدته لها العناية الالهية إلا باستعمال جميع خصائصه ومواهبه الممنوحة له وعدم قتل عاطفة من عواطفه . ثم نظروا نظرة إلى الماضى فرأوا أن الذى أخر العالم الأنسانى عن الوصول إلى ماهيء له من مقاوم الرفعة هو الانصياع إلى أوامر رجال ادعوا أنهم قادة الأديان ورؤساؤها فأنحوا عليهم طعناً وتنديداً ورموا تعاليمهم بتهمة تأخير الانسان واهباطه ومن ذلك ماقالوا (فويرباش) متهكما ! « ان الفضيلة الدينية وعلى الخصوص الفضيلة العليا أى فضيلة الاولياء هى أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية وأن تطرح سائر الاعمال والأشياء الدنيوية كأنها لهو باطل لأجل أن تستطيع بدون ترويح لنفسك وبقلب منكسر أن تذبل فى انتظار الجنة . وأن تقتل جميع عواطفك وأميالك الطبيعية وتميت نفسك وتذللها . »

رأى علماء أوربا — والدليل الحسى بين أيديهم — أن رقى الانسان منوط برقى العلم ونموه ، وأن نمو العلم ورقيه مرتبط بانطلاق العقل من قيوده وتحرره من أصفاده وعدم سيطرة شيء من الأشياء على الأبحاث العلمية حتى لايتأتى من تلك السيطرة ماحصل من نتائج المنابذة بين رجال الأديان ورجال العلوم فى الأزمنة الماضية قال المسيو (بلوك) : « أن رقى القوة الفكرية وحسن الحكم على الأشياء يتعلق بنمو العلم . وقد تحصلنا على هذه النتيجة بترقية معلوماتنا التى هدمت أركان كثير من ضلالاتنا السابقة من جهة ومن جهة أخرى باستعمالنا لحسن النظر والتدقيق فى الأشياء . »

لاعتقاد العلماء الاوربيين بأن حرية العقل والعلم هى مناط كل السعادات المادية والمعنوية تراهم لايستطيعون أن يكتبوا تاريخ الضغط عليهما إلا بمزيد

الانفعال والتغيظ من الماضى متشفين من الذين يؤملون أن يعيدوا الكرة . ولنترجم قطعة صغيرة من أقوال (لاروس) المشهور ليرى القارىء مقدار التحمس الذى يتذكر به علماء الغرب ضغط الزمان السابق قال : « إن قلنا إن الاحسان يقتضى اعتقاد الأشياء المعقولة يقولون . كلا . كلا . ثم يسعون فى تذليل هذا العقل الانسانى الذى يدعى لنفسه حق التميز بين الخير والشر وبين العدل والظلم . حتى إذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات كأنها أمور معتادة وتظن الأبيض أسود وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا . نطيع من ؟ هل نطيع العقل ؟ هل الواجبات الطبيعية ؟ هل الاحساسات القلبية ؟ هل النواميس الحقيقية المفيدة للانسانية ، والتى تنتج من تلك القواعد نفسها ؟ كلا . ولكن أطع وأنت أعمى إلى الذى يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك أو بعمل مقتلة عامة فانه ليس لك لاروح ولا ضمير ، إنما أنت ميت فى الله »

إلى هذا الحد وأكثر وصلت مناوأة علماء أوربا للأديان الموجودة ولكن هل نستنتج من هذه المناوأة أنهم تركوا التدين بالمرة وزعموا أنهم استغنوا بعلمهم عن الانجذاب والخضوع لخالقهم وخالق كل شىء ؟ كلا . انهم ليقرون مع أصحاب الأديان ويزيدون عليهم فى استدلالهم بالابحاث العلمية إن الاحساس الدينى هو غريزة النفس البشرية لاتقل فى الوضوح والتأثير عن الاحساس بضرورة الغذاء . قال (جيزلر) الفيلسوف الألمانى فى كتابه تاريخ الاعتقادات : « الدين مخلد مثل خلود الاحساس الذى ينتجه ولكن علوم الدين هى مثل سائر العلوم الأخرى يجب أن تكون قابلة للرقى على قدر الرقى العقلى وذلك مثل العلاقة الموجودة دائماً بين الحقوق وعلم التشريع . فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام . »

وقال المسيو (ارنست رينان) فى كتابه المسمى تاريخ الأديان :
« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبدالآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية . »

ملخص الأمر أن علماء أوروبا الذين يركن اليهم يجمعون على أنه من المحال أى تزول من النفس غريزة التدين كما يستحيل أن تزول منها غريزة الحب أو البغض ، ولكنهم قرروا مع ذلك — وكتبهم شاهدة عليهم — أن لا دين من الأديان الموجودة يصلح لأن يكون الدين العام للجمعية البشرية المستقبلة ولا الحاضرة ، لماذا ؟ قالوا لعدم انطباق اساساتها على قواعد العلم ولمعاكسة نصوصها لبداهة العقل ولتقييدها الأمور تقييداً ينافى ما عليه المدارك البشرية من الحرية والانطلاق . ولذلك قال أحد فلاسفة أوروبا أن الدين كان يبقى غير قابل للزوال والتلاشى إذا كانت قواعده مطلقة عن الحدود وأصوله مجردة عن القيود كما هو استعداد الانسان للكمال المطلق وأهليته للرقى الذى لا يحده وصف الواصف ، وتقولون أنه لو كان دين من الأديان الحاضرة يستطيع أن يؤلف بين العاطفة الدينية المغروسة فى جبلة الانسان وبين مطالب الحياة وواجباتها ويسير بالجمعية البشرية إلى حيث هدتنا اليه الابحاث العلمية من السعادة المرجوة للزم الاعتراف بضرورته اعترافاً قطعياً . قال (لاروس) بعد أن ندد بنظامات الأديان ما يأتى :
« ليست هى الديانة التى تحث الرجل على أداء واجباته بل هو الفكر العام وقوة الطباع والعواطف التى تنشأ فى داخلية العائلات تحت ظل ذلك الفكر العام الذى هو نفسه يزيد تهذبا ولطفا كلما تقدمت المدنية والمعلومات

فان عرفت الديانة بأنها مجموع أفكار صالحة لربط جميع أفراد البشر إلى جمعية واحدة متمتعة بالفوائد المادية كما هى متنورة فى القوة العقلية فقد حق لك اذن أن تقول ان الدين ضرورى للنوع الانسانى » انتهى

هذا ومن الأدلة الحسية على أن العقل البشرى مهما ترقى وتقدم فلا يستطيع أن يعيش بلا دين: هو أن طائفة كبيرة من علماء أوروبا قامت بتأليف ديانة سمتها الديانة الطبيعية ولم يدخلوا إليها من القواعد والأصول إلا ما دل على حقيقته البرهان وقام بالدلالة عليه الحس والعيان. وسنأتى فى الكلام على أسس الاسلام على أهم قواعد ذلك الدين الجديد ليرى المسلمون بأعينهم أن دينهم لم يترك مجالا لجائل ولا مقالا لقائل: « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ».

ما هو الاسلام؟

أى بليغ يتصدى للكلام على الاسلام ولا يشكو من العجز التام والقصور البين عن القيام بتوفية هذا المقام السامى حقه من التبيين؟ وأى حكيم يتعرض لتفصيل بدائع هذا الدين الحنيف ولا يعد نفسه من القاصرين المقصرين؟ ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله.

أى مادة غريزة وقريحة سامية وعالمية شاملة يجب أن يتصف بها الانسان لأجل أن يمكنه فهم وتفهيم هذه النواميس الأزلية الأبدية التى تدور عليها الأدوار وتمر بها القرون والأعصار وهى هى كما كانت نواميس يزيدها القدم شباباً ويلبسها الزمان من الجدة جلباباً وتودعها الأجيال للأجيال ولا يدركها إلا الذين أنار الله بصائرهم بنور العرفان

وأطلع فى سماء أفكارهم شموس البيان : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون . »

انا نقول بتمام الحرية وكمال الاستقلال والعلم نصيرنا والعقل ظهيرنا إن الاسلام هو سنام الكمال الأعلى الذى خلق الانسان وأعد للرقى إليه والذى لأجله وضعت فيه غريزته الدأب والبحث عليه . بل الاسلام هو أمنية النفس البشرية التى فطرت لتنشدها وتتحسسها كأعظم غاية لها وأسمى نقطة لكمالها . فهى لا تفتأ تتطور فى كل الأطوار وتدور مع كل الأدوار بحثاً عن تلك الضالة العزيزة المنال والتى فى وجودها راحة لها من البلبال ومقنع لها من كل الآمال والأميال

نعم الاسلام هو الغاية الكمالية التى مات دون نيلها الحكماء وفنى قبل اكتناهها العلماء . الاسلام هو القانون الأقوم والناموس الأعظم الذى من الله به على هذا النوع الضعيف ليقيم أود حالتيه ويغنم به سعادة حياتيه ويجعله الركن الذى يعتمد عليه ويهرع فى الشدائد إليه . من به على هذا النوع خاتمة للأديان وتاجا على هامة الزمان وفى الحين الذى تم فيه نمو عقل الانسان ليكون حجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصدع بالعدل وترينا طريق الهدى بالحجة لكى لا يكون للانسان بعد أن بلغ رشده تعلة فى رفضه ولا قوة فى دحضه

الاسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها حتى صارت نصوصه فى هذا القرن أوضح من الضياء وأسهل جولاناً فى العقل من الشعاع فى الماء . فلا قاعدة دلت عليها التجارب . ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر فى ترقية الانسان وتحسين بناء العمران إلا وهى صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الأحاديث النبوية حتى يخيل للرائى أن كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية فى سبيل رفعة شأن الانسانية

لا يقصد به إلا إقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الاسلامية : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . »

بناء على ما قدمنا فلن يمكن صدم تيار الاسلام بأى وسيلة كانت ، لأنه لا فرق بين صدمه وبين صدم المدنية الانسانية والترقيات النفسية وبين محو النصوص العلمية العملية ورد الناس الى الحالة الأولية . وهذا أمر لن يقدر عليه مجموع الأنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا : « يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره . »

فلنشرع الآن بعون الله تعالى فى إثبات أن كل ما نقرأه من قواعد المدنية العصرية ليست بالنسبة إلى قواعد الديانة الاسلامية إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر وأسهل سبيل يوصلنا إلى هذا الغرض هو أن نتكلم على أسس المدنية الحالية ثم نثبت أنها بعض أسس الديانة المحمدية بطريقة واضحة جلية فنقول :

ما هو الدين ؟

إن لفظة دين قديمة جدا كقدم مسماها وشائعة بين كل الطوائف البشرية سواء حاضرها وباديها وحشيها ومتمدنها ولكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيقى الذى جاءت به الشرائع الالهية والذى ينطبق على رحمة الخالق وعنايته . ومن يتدبر التاريخ ير الشعوب المختلفة قد تطورت أطوارا كثيرة فى فهم معنى هذه الكلمة على حسب تطور العقل البشرى فى فهم المعقولات .

كان الأقدمون لايعرفون الدين إلا أنه مجموع احتفالات عمومية تضحى فيها الحيوانات أو أسرى الحروب إرضاء لمعبوداتهم وتسكيناً لغضبهم . ثم

لما ترقت المدارك الانسانية ونمت فيها الغريزة العقلية بطرو العلوم والفنون أخذ معنى الدين ينجلى شيئاً فشيئاً ويقرب رويداً رويداً من المعنى المراد لله والذى جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه كذلك

نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للاسلام يجب علينا . أولا أن نتكلم على مايفهمه علماء أوروبا من هذه اللفظة بعد أن فحصوا العلوم فحصاً وأوسعوا الكون بحثاً عن نواميسه وتنقيرا عن قوانينه لنجعل هذا من بعض الأدلة الحسية على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العالم فى سبيل فهم الحقائق هى تقرب ظاهر الى الاسلام فنقول : إن علماء أوروبا بعد أن دخلوا فى كل دور يمكن أن يدخله الانسان المعرض لكل أصناف الفتن العلمية (ومن يطالع تاريخ العلم من أول سقراط للان ير العجب) عادوا الآن حيث الهدو شامل وبدر العلوم كامل فاعترفوا عن بينة بأن لهذا الكون خالقاً قادرا حكيما متصفا بكل صفات الكمال ومنزهاً عن أقل مايشعر بالنقص . وأنه جل سلطانه وضع الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر إليه بروية أن يستنتج منه تلك الصفات العليا استنتاجاً محسوساً وأن يتعلم منها أمورا يغنى الجرى عليها مع قلتها وسهولة فهمها عن ألوف القواعد والتعاليم التى كانت تلقى على الناس فيحنون رؤسهم خضوعا لها ولكن على غير فهم لحكمتها ونتائجها . ثم رأوا بالاستقراء لنظام الكون ونواميسه أن الخالق جل شأنه يتعالى علواً كبيرا عن الاحتياج لكائن من صنع يده بل هو غنى بذاته عن كل ما عداه . ثم قالوا إن غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتماماً يدل على عظيم رحمته وسعة رأفته وأقل نظرة فى الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية :

أنظر إلى أصناف النباتات والحيوانات من أدناها إلى أعلاها تر آثار هذه المرحمة الكبرى تتجلى للانسان تجليا يبعثه رغم أنفه إلى محبة ذلك

الخالق العظيم . فانه جل سلطانه لم يترك كائنا من الكائنات إلا ووهب له ما يقيم له أود حياته ويحفظ بقاءه وما يدفع عنه الوائق والجوائح إلا ما يستلزمه نظام الكون ويكون فى حصوله أثر مرحمة أسمى ورأفة أعلى بمجموع هذا الوجود . ثم إن الهاً هذا شأنه لا يحمل الانسان من العبادة إلا مافيه حكمة بالغة وفائدة عظمى لذات الشخص وبنى نوعه وسائر أجزاء الطبيعة . لأن مجرد التدبر فى جميع أنواع الكائنات يدلنا دلالة واضحة على أن خالقها لم يخلقها وهو مريد افسادها وملاشاتها بل خلقها وأراد اصلاحها وبقاءها ومما يدل على ذلك إيداعه فيها القابلية للترقى والتدرج لدرجة حددت فى سابق علمه . ولما كان الانسان لا يفترق فى النسبة إلى الله عن سائر الكائنات الأخرى بل يزيد عليها فى كونه نهاية الابداع وغاية الاختراع فيكون بالأولى خاضعاً لناموس الرقى والتدرج وقابلا له أكثر من سواه

هذا هو الواقع فان من يتأمل فى مبلغ الرقى الذى حصله الانسان من أول نشأته إلى الآن يتحقق أن الخالق جل جلاله وهبه من الخصائص مايستمر به ترقيه وتدرجه إلى نقطة لم يصل اليها الفكر البشرى للآن . ثم قالوا وبما أن أفعال الله مجردة عن البحث والتناقض فيجب أن تكون تلك العبادة المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة فى الكون كله وملائمة للأميال والاحساسات المغروسة فى جبلة النوع الانسانى . فاستناداً على هذه البداهة العلمية التى لايصح الامتراء فيها بنى طائفة عظيمة من علماء أوروبا ديانتهم الطبيعية واليك ماقاله فى هذا الموضوع أحد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير (جول سيمون) قال : « إنا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته وعند ما ينتهى بقاؤنا فهو إما أن يثيبنا وإما أن يعاقبنا » ثم ذكر الأسباب التى تقتضى الاثابة والعقوبة فقال : « أما الأمر الذى يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الانسان

لقانونه الخاص وعمله للخير . أما قانون الانسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه . ثم هي محبة وخدمة اخوانه ، ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ماهي الطريقة التي يعبد بها الانسان ربه ؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب والعمل والأخلاص هي نفس العبادة ونفس الصلاة ، والاخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى . هذه هي الديانة الطبيعية . وهذه هي العبادة الطبيعية . كل أصول مذهبنا هذا واضحة لارموز فيها . أما أصوله فهي الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شيء ولايغيره شيء . خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة . ووجود حياة أخرى تؤدى لنا كل وعود هذه الحياة وتكافىء المظالم بالجزاء الأوفى . هذا هو اعتقادنا . فأما صلاتنا فهي أن يكون قلبنا مملوءا بمحبة الله تعالى ومحبة الأنسان ، وأن تكون لنا إرادة ثابتة فى أداء الواجب وخدمة ارادة الله تعالى بعمل الخير والبر » اه

وهنا نستدرك فنقول أن أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجسمية مطلقاً كما يؤخذ ذلك من كلام (جول سيمون) فى غير هذا الموضع . إلا أنهم فقط لا يحتفلون بعبادة جسمية لا يكون من نتيجتها فائدة أدبية تذكر . فهم يريدون أن تكون معتبرة وسائل لأحياء القلوب وتطهيرها من أدناسها لا أغراضاً قائمة بنفسها مجردة عن كل غاية . قال (كانت) الفيلسوف الطائر الصيت : « العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت أغراضاً لاوسائل . وهي يمكن أن تكون نافعة مفيدة إذا لم تعتبر إلا وسيلة لايقاظ وتقوية العواطف الفاضلة فى النفس البشرية . »

أما نحن فنلخص من كل هذه الأقاويل أربعه أمور مهمة هي مذهب علماء أوروبا فى الدين وهي : (أولا) الاعتقاد بأن الله غنى عنا وعن أعمالنا وان ما نعمله من الخير لانتيجة له الا منفعتنا الخاصة . (ثانياً) ان

الله تعالى رحيم بالأنسان ويود صلاحه ولا يكلفه بالعبادة الا لفائدة نفسه . (ثالثاً) ان العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشرية لا أن تعارضها وتسعى فى ملاشاتها . (رابعاً) العبادة الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا أغراضاً مطلوبة لذاتها

نقول ان هذه الأربعة الأمور التى لم يبلغها العقل البشرى الا بعد أن شابت ناصية الكرة الأرضية وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها عجباً ويميلون طرباً ليست هى الا شعاعاً من الديانة الاسلامية وقطرة من بحرها الزاخر . ونحن لاجل زيادة الاقناع نأتى هنا على النصوص الشريفة التى تنطبق على هذه الامور الاربعة مرتبة على حسبها فنقول : (اولا) قال تعالى : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه . ان الله لغنى عن العالمين» (ثانيا) قال الله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون . » (ثالثا) قال الله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقال تعالى : « ولو أنا كتبنا عليكم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » وقال تعالى : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الأنسان ضعيفا » (رابعا) قال عليه الصلاة والسلام: « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » وقال عليه الصلاة والسلام : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»

هذه هى عقيدتنا فى فهم الدين . وقد رأيت انها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق . ولما كانت مطاعن علماء أوروبا على الأديان لم تتوجه اليها غالباً إلا من هذه الوجهة الرئيسية التى ينبنى عليها سائر قواعد الدين فقد حق لنا أن ننادى بأعلى صوتنا أن

الاسلام أعلى وأسمى من أن يناله سهم من سهام ذلك التنديد الشائن وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاعن .

هذه الأربعة القواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية أركانا تنبنى عليها كل قاعدة قانونية يكون فى العمل بها تقدم الأنسان إلى النقطة الكمالية التي أعد هذا النوع لبلوغها . ولما كان العلم هو المنوط اجماعا بتحسن تلك القواعد المرقية للانسانية فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل اليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية فى الجرى على سنتها رضاء الخالق والقيام بطاعته

أما المرويات القديمة . الأساطير التى مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمتها من قواعد الدين فقد صدقوا عنها وهجروها هجراً كليا . قال (كانت) : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الا على قوانين أعنى قواعد قابلة للتطبيق نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية » كأن (كانت) يريد أن يذكر المسلمين بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

الناموس الاعظم للمدنية

ان من يتدبر فى تفاصيل تاريخ الأمم من يوم تكونها الى الآن لا يرى فيها الا أهوالا تشيب الولدان وترعد فرائص الأنسان ! يرى حروبا دموية وفتناً اجتماعية ، ومصائب أسرية ، ومفاسد أخلاقية ! يرى الأطماع والشهوات البهيمية لابسة لباس النفاق والوحشية . تسفك الدماء ، وتيتم الأبناء ، وتهدم كل بناء ! يرى رجالا رفعتهم الصدف الوقتية إلى مقاوم الشرف الوهمية جعلوا ممن دونهم عبيدا يمتصون دماءهم ويبتزون ثراءهم لاطفاء جمرة شرتهم

واشباع بطن نهمتهم ! اللهم إلا بعض مستثنيات من السعادة كانت تشرق فى بعض الأمم ثم تختفى ليحل محلها الشقاء والكمد

هكذا ترى تاريخ الانسان كله مملوءا بالاحن والمحن مفعما بالكدر والحزن مما يكره اليك بنى نوعك ويحبب اليك انهام نفسك ، ولكنك لو علوت قليلا عن مثار هذه القلاقل والزلازل ونظرت إلى النوع البشرى من وجهة أخرى لرأيت بعينك أن هناك ناموسا ثابتا يبعث الانسان من خلال هذه المضانك الاجتماعية والارتباكات العمومية إلى التقدم نحو الامام رغماً عما يساوره فى جميع جهاته من هذه النوائب المنصبة . ثم لو علوت عن مركزك هذا إلى أسمى منه لتحققت أن تلك الارتباكات كلها هى نواميس ثانوية تابعة لذلك الناموس الذى شاهدته أولا وان تلك الارتباكات والمضانك هى أفاعيلها وآثارها تنفعل فى العالم لكى يرتج فى بعضه ارتجاجاً يفصل عنه خبث الأخلاق البهيمية ودرن النزعات الوهمية . هذا أمر لا مشاحة فيه خصوصاً فى عصرنا الحاضر . ويمكنك أن تهتدى اليه بقليل من الاستقراء فانك لو فحصت كل نازلة مهمة ألمت بالعالم فى عصر من عصور التاريخ لرأيت أنها جلبت معها فائدة عظمى لو وزنت مع المصيبة التى سبقتها لرجحت عليها رجحاناً يقلل من تأثرك من تلك المصيبة بل يرضيك عنها رغماً

نحن فى هذا الكتاب الوجيز لا نستطيع أن ندرس وقائع النواميس الاجتماعية التى يتأثر أفاعيلها على النوع الانسانى خرج من ظلم الجهالة والوحشية إلى باحة النور والمدنية . كلا . فهذه أمور تعوزنا لكثير من البحث والتدقيق يخرجنا عن نيتنا الأولى من جعل كتابنا هذا صغير الحجم شاملا لأطراف موضوعنا . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نلم بسر هذا التدافع الاجتماعى إلماماً يسهل علينا بحثنا وينير لنا المسائل الاجتماعية الكبرى بطريقة ترينا الحقائق مجسمة أمام أعيننا لتكون حجة التطبيق أكثر إقناعاً فنقول :

إن أول ضرورة شعر بها الانسان بعد مقومات حياته الشخصية هى ضرورة الاجتماع على طائفة من بنى نوعه . فكنت تراه من جهة ذاته على تمام الحرية لا يقيده شىء من الأشياء . ومن جهة أخرى ضعيفاً عاجزاً لدرجة تلزمه أن يضحى بعضاً من هذه الحرية فى سبيل إقامة أود حياته هرباً من فناء عاجل . لهذا أجمع علماء العمران على أن الانسان مطبوع على الاجتماع رغم أنفه لأنه من مقومات حياته التى لا يمكنه أن يستغنى عنها كما لا يمكنه أن يستغنى عن المأوى والملجأ

بين هذه الحرية المطلقة التى يشعر بها الانسان فى نفسه وبين إحتياجه لأن ينضم إلى جمعية من بنى نوعه قامت كل الفتن التى يحدثنا بها التاريخ وترويها لنا السير كما بنى عليها كل ما شاهدته وتشاهده من التفاعل فى أجزاء النوع البشرى جرياً وراء الغاية المتمناة . وعلى هذا فحوادث التاريخ كله فى الامم جمعاء مبنية على تحديد قواعد الحرية المعتدلة التى تليق بمقام النوع الانسانى ، وعلى تحديد السلطة التى تستلزمها حالة الاجتماع ولم يزل النوع الانسانى للآن هدفاً للتدافع الهائل بين أجزائه طلباً للاهتداء إلى الحد الفاصل بين هاتين القاعدتين . إلا أن هذين القرنين الأخيرين يمتازان عن سابقيهما بشدة القرب من ذلك الحد المعتدل بفضل الدماء الغزيرة التى سمح بها محبوا الحرية فى أوروبا فى القرن الفارط مما لم يسبق له مثيل فى عصر من العصور السابقة . قال علماء العمران : وهذه الحرية التى نالتها الأمم الأوروبية فى هذا القرن الأخير هى سبب كل الرقى الذى نرى آثاره الآن على ربوع أوروبا .

ما هى تلك الحرية التى جاهدت أوروبا لنيلها جهاد الأبطال وبذلت لتحقيقها كل مرتخص وغال ؟ هل هى بعيدة عنا بعد السماء من الأرض أو بعد اجتهاد أوروبا من خمول الشرق ؟ كلا . هى بين أيدينا ولكنا غافلون عنها كغفلة الغنى الأبله عما بين يديه من الكنوز التى لو صادفت مالكا

كفؤا لساد بها على غيره ولأطلق الألسنة بالثناء على خيره . نعم هى بين أيدينا ولو شئنا لعملنا بها وجرينا على سنتها ونحن آمنون مطمئنون لا تكلف فى سبيل تأييدها بذل المهج ولا اقتحام الرهج ، بل هى من محفوظاتنا عن ظهر قلب ولا تكلف إلا فهمها على حقيقتها ببذل قليل من التدبر . لو فعلنا ذلك حصلنا الغرب فى قليل من الزمن فلا يسعه وقت ذلك إلا أن يندهش من سرعة رقينا كما اندهشت دولتا الرومان والفرس من سرعة انقلاب حالة العرب من الوحشية إلى المدنية العليا فى بضع وعشرين سنة

ما هى تلك الحرية التى يقول عنها المسيو (د . فيو) : « الحرية هى أفضل سعادات الدنيا » والتى يقول عنها (باشيا) : « الحرية هى أصل كل الرقى الانسانى » والتى يترنم بحسنها (فيكتور هوجو) ويقول : « يمكن أن يقال ان الحرية هى الهواء الذى يجب أن تستنشقه النفس الانسانية » هل هذه الحرية هى الانفراط الكلى من كل قيد والانخلاع المطلق من كل رابط . كلا . فتلك حرية الحيوانات التى لا نحسدهم عليها : بل الحرية التى يتوق اليها فلاسفة الامم هى الحرية المعتدلة التى تسمح للانسان باستعمال جميع خصائصه بدون أن يخشى مسيطراً عليه إلا إذا تعدى حدوده المحددة له بوساطة الشريعة العادلة ، وكان تعديه ذلك مضرا ببعض أعضاء الجمعية التى هو فرد منها

هذه هى الحرية التى يتلمسها عقلاء الأمم من يوم أن تسنموا هامة هذه الكرة الأرضية وهاهم لم يزالوا للآن فى جهادهم الأول ولو كانت أشكاله تغيرت عما كانت عليه أيام كانت القنا والقواضب هى صاحبة القول الفصل والكلمة العليا . ونحن هنا قبل أن نتكلم عليها لأجل أن نطبقها على قواعد الديانة الاسلامية يجب علينا أن نتكلم قليلا عن جهاد النوع الانسانى وراءها من منذ بدء الخليقه لنستطيع أن نقف على تفاصيل المسألة من أولها إلى آخرها . ولنستدل على القواعد الأساسية التى قامت عليها حرية الأمم المتمدينة فنقول :

جهاد الانسان لنيل الحرّية

الانسان حر بطبعه ولا يحتاج إلى مرشد يرشده إلى الحرية لأنها من العواطف الشديدة التأثير عليه اللهم الا اذا توصل الى تعكير وجدانه بالخزعبلات المطفئة لنور البصيرة كما حصل فى كثير من الأمم ولكن لما كانت الحرية المطلقة أى حرية الحيوانات تبطل عمل كثير من الخصائص المودعة فى الانسان والتى لا تتم إلا بالاجتماع رضخ الانسان لأن يضحى قليلا من تلك الحرية فى سبيل مما رسته تلك الخصائص . من هنا نشأت السلطة مع ما استلزمته من المقتضيات التى أخرجت تلك السلطة عن حدودها فى كثير من الاحوال . ذلك أنه لما كان من ضمن أميال الانسان المودعة فى جبلته حب التسلط والعلو على سواه وجدت بعض النفوس مساغاً إلى تحقيق أمانيها من التسلط المطلق ومجازا إلى متابعة هواها من التعالى الافراطى على الغير وتذرعت لذلك بكل الذرائع الممكنة .

ولما كانت وسائط التسلط لاتنجح إلا إذا واجهت الانسان من أشد عواطفه تسلطاً عليه وجد محبو القهر والجبروت ان أنجع تلك الطرق هى التأثير على الانسان من طريق الدين وكان الجرى على هذه الطريقة سبباً فى تحريف أكثر الأديان وإخراجها عن نصوصها الأصلية طمعاً فى امتلاك أزمة القلوب والسيطرة على العقول . فكانوا يتربصون لكل حركة يأخذها العقل طلباً للتخلص من أوهاقه القاتلة فيبتكرون له من أنواع التخرصات الدينية ما يقف أمامه ولو حيناً من الزمان دهشاً مذعورا ، حتى اذا صدم ما يراه أمامه وأخذ يتحرك يمنة أو يسره أتوا اليه فى الحال بما يثبط من تلك الحركة أو يمنعها من الانتشار : وهكذا دام الحال قروناً كثيرة جدا فى

خلالها كانت كلمة أولئك المسيطرين هى الكلمة العليا وأمرهم هو الأمر النافذ حتى طرأ على العالم من تأثير نواميس الرقى مايفكهم نوعاً ما من ربقة ذلك الاستعباد المطلق لرجال الدين فنشأت سلطتان سلطة دينية وأخرى سياسية فحصل بينهما من التدافع والتجالد مالا تكفى المجلدات لتبيين أهواله حتى توصلت بعض الشعوب المرتقية فى هذين القرنين إلى التخلص من نير السلطة الدينية كما افتكت نفسها أيضاً من غلو السلطة السياسية ففرحت تلك الشعوب بما حصلته من الحرية بعد ماشابت ناصية الغبراء وسترت مشيبها بالدماء. فأخذ علماؤها يؤلفون الأسفار الضخام ترنماً بتلك النعم الجزيلة وطفقوا يشنون غارة شعواء على كل الأديان بما لا نستطيع اثباته هنا وتغالوا فأنذروا سائرها بالزوال ولم يعلموا أن كل مانالوه بعد التى واللتيا ليس هو إلا تقرباً إلى الأسلام الذى أشرق نوره على العالم يوم كانت أوروبا فى ظلم الجهالة الحالكة.

جاء الاسلام فى وقت كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين هما دولة الفرس ودولة الرومان. أما الاولى فكانت القلاقل الداخلية والخارجية آخذة فى زعزعة بنيانها وتقويض جدرانها. وأما الثانية فكانت لم تزل على جانب عظيم من عظمتها الاولى وكانت لم تبرح تزلزل الأمم بسطوتها وتدوخ البلاد بقوتها. وكان فيها شطر عظيم من مدنيتها السابقة أى مدنيتها التى يقول عنها (لاروس) فى دائرة معارفه ما يأتى: « ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال؟ كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة فى صور قوانين. أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعية فهى بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص. أما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية فكان لايرى فيها إلا شرهاً مفرطا للمال وحقداً على الأجنبى وضياعا

لاحساس الشفقة الأنسانية . أما العظمة فى روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن أعمال السوط والسيف فى العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر .»

نحن لم ننقل هذه المقولة فى هذه المناسبة إلا لنرى القارىء مبلغ المدنية فى ذلك الوقت عند أعظم أمم الأرض ليتحقق أن كل ماسيراه من أساسات الأسلام الطاهرة ليس بالأمر المستعار من أية أمة من الأمم الأخرى كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين . ولن نكتفى بهذا ، بل سنثبت ذلك من أقوال أساطين علماء أوروبا أنفسهم .

قلنا أن الأمم المتمدينة نالت من الحرية فى هذا العصر مابنت عليه كل رقيها العقلى والخلقى مما حدا بأكثر علمائها أن يدعوا أن تلك الحرية مناقضة لنصوص الديانات كافة كما أسلفنا ذلك ، وبنوا على فكرتهم هذه وجوب زوالها كلها فى مستقبل قريب وحلول العلم محلها فى قيادة الأنسان إلى سعادته . أما نحن فسنبرهن بالأدلة الحسية على أن الأسلام فضلا عن كونه لايعارض تلك الحرية التى رفعت الغرب من وهدته فانه يحتوى على قسط منها لاتقارن به حريات العالم على أنواعها إلا كما يقارن الخيال بالحقيقة .

إن حرية العالم المتمدن التى نشاهدها الآن على مابها من عظم وجلالة لم تتأيد دعائمها ولم تثبت وطائدها إلا بواسطة ثلاث حريات بسيطة أخرى كانت بالنسبة لها كأعمدة ثلاثة بالنسبة لبناء فاخر . أما هذه الثلاث حريات الأولية فهى : (أولا) حرية النفس . (ثانيا) حرية العقل . (ثالثا) حرية العلم . ولنتكلم على كل منها بوجه الاجمال مع اثبات أنها بعض قواعد الاسلام فنقول :

١

حرية النفس

إن أكبر وسيلة تذرع بها مذللو النوع الأنسانى للسيطرة والقهر هى حرمانهم النفوس البشرية من حقوقها الطبيعية وتجريدها من أهم خصائصها الفطرية وجعل تلك الحقوق والخصائص تحت تصرفهم الخاص يوجهونها إلى حيث شاء هواهم ووافق كبرياءهم . فكانت كلمة (اعتقد وأنت أعمى) كما قال (لاروس) هى القاعدة المتبعة والناموس السائد على كل فرد من أفراد الأمم . وكانوا اذا آنسوا من أحد من الناس بارقة التحرك الى التفصى من وثاقه الثقيلة أسرعوا بالحكم عليه بالمروق من الجمعية القدسية وجعلوه طعمة للنيران أو أذاقوه من العذاب مايقشعر له جلد الحيوان .

انتحلوا لانفسهم حق الوصاية على النوع البشرى وكلفوا أنفسهم تربية صغاره فنقشوا فى مخيلاتهم من التعاليم والقواعد ما يجعلهم إذا شبوا آلات صماء فى أيديهم يستعملونها كيف شاؤا وفى أى غرض أرادوا . غرسوا فى أذهانهم أن السعادة والشقاوة الأبديتين معقودتان بارادتهم ومرتبطتان بمشيئتهم « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » فنشأ الناس طبقاً للقالب الذى صبهم فيه قادتهم وكانوا كلما تحركت ضمائرهم وتململت أنفسهم ناداهم مما انطبع فى سرائرهم من تلك التعاليم مناد يقول لهم : « كلا إنه لا أنفس لكم ولا ضمائر . ما عليكم إلا أن تطيعوا طاعة عمياء ! »

من هنا ماتت الحرية النفسية ومات ما يبنى عليها من حرية المدارك المربية لأنواع الملكات فلم يسع الطبيعة البشرية إلا أن أقامت الحجة عليها فتغلت النيات ودويت الصدور وتشعبث الهواجس فى النفوس وافعوعمت الأفئدة بالأضغان والأحن ووقعت الجمعيات فى حيص بيص وكان الناس

فيها تقطع الخشب فى المرجل تغلى على تنور يصعدها وينزلها غليان الصدور واضطرابات الأمور فنشأت الثورات الدموية بفظائعها التى لا تنطبق على إحساس ولا تدخل تحت قياس - حتى كان ما كان مما يعلمه كل إنسان لديه قليل من علم العمران

فى أثناء تلك الظلم الحالكة وقبل تلك القلاقل المزعجة كان خالق الانسان موجهاً عنايته السامية إلى تربية الأمة العربية فى وسط الشعاب والصخور على مقتضى قواعد الحكمة العظمى التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ليجعل منها أمة تقيم الحجة على لسان الجبار الأعلى وتؤدب الطاغين بيد القهار الأقوى حتى إذا ثابت الأمم إلى السكون بعد أن تنال من المدنية ماقدر لها فى العلم المصون وتاقت إلى فهم ما يدعيه المسلمون من أن دينهم هو الكنز المكنون والسر الذى قامت به السموات والأرضون وجدوا أن كل ما وصلوا إليه بعد بذل المهج واقتحام الرهج ليس إلا صورة منعكسة من تلك التعاليم الالهية ! « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . »

فهل تنظر الآن فيما يقول الاسلام فى حرية النفس لنثبت لقادة الحكمة ونصراء النوع الانسانى . إن كل النظريات التى يفتخر بها علماء هذا القرن ما هى إلا صدى الصوت الذى رن بين شعاب مكة والمدينة قبل زهاء أربعة عشر قرناً فنقول : جاء الاسلام واضعاً لأساس المساواة بقوله تعالى « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . » وقوله عليه الصلاة والسلام . « إن الله قد أذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لأن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم . »

فامحى بذلك كل فضل يمكن أن يدعى بأصالة المحتد أو بوفرة الغنى أو

بالانتساب إلى قبيلة إلى غير ذلك من دواعى الامتياز وبواعث الانحياز ، وجعل التمايز بالمزايا والأعمال لا بالفخفخة والأقوال فقال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » وقرر أن التقوى ليست من الأمور التى يمكن للانسان أن يحكم عليها بمجرد النظر إلى أفعال الرجل فى الطاعات واجتهاده فى أصناف العبادات فربما ذهب ذلك كله هباء منثوراً لعقيدة رسخت فى فؤاد فاعلها لا يطلع عليها غير الله تعالى . قال عز وجل : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . »

قرر الاسلام ان قبول الأعمال الصالحة هو من خصائص الله تعالى فليس للعبد ان يحكم على تقوى يراها فى غيره بالقبول أو الرد بل يجب عليه أن يدع الحكم فيها للخالق جل شأنه حتى ولو بلغت تلك التقوى بصاحبها إلى درجة أعلته عن سائر أصناف الخلق . قال عليه الصلاة والسلام « دعوا المحدثين من أمتى (أى الذين تحدثهم الملائكة) لا تحكموا لهم بجنة ولا بنار حتى يكون الله هو الذى يقضى بينهم يوم القيامة . » وقال عليه الصلاة والسلام : « ويل للمتألين من أمتى الذين يقولون هذا للجنة وهذا للنار . »

لم يعين الاسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بامتيازات خاصة تعلو بهم أمام القانون الالهى عن مرتبة أقل المسلمين مكانة وجاهاً ، بل فتح للكل باب الفضل الربانى وقرر أن ذلك الباب مفتوح للكافة على السواء يلجه

من أراد الولوج بدون احتياج ولا عوز لمرشد غير كتاب الله وسنة رسوله ولم يكتف بذلك بل حذر كافة متبعيه من الوقوع فى أشراك من يدعون الاشقاء والاسعاد أو ينتحلون لأنفسهم حقاً ليس لسائر الافراد. قال عليه الصلاة والسلام: «من قال أنا عالم فهو جاهل.» وقال عليه الصلاة والسلام «أخوف ما أخاف على أمتى رجل يتأول القرآن يضعه فى غير مواضعه ورجل يدعى أنه أحق بهذا الأمر من غيره.»

أكد الاسلام لمتبعيه أنه لن يغنى عن المرء يوم الحساب غير عمله ولا ينجيه من غائلة العذاب غير مكتسبات نفسه فلا يجديه الانتساب إلى عظماء أو الاعتزاء إلى أب كريم. قال الله تعالى: «وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى.» وقال جل شأنه: «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون.» وقال خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم: «ياعباس ويا صفية عمى النبى ويا فاطمة بنت محمد إنى لست أغنى عنكم من الله شيئاً. إن لى عملى ولكم عملكم.» لهذا وردت الأوامر الالهية موجهة إلى سائر الأفراد على السواء ومكلفة أصغر عضو من أعضاء الجمعية الانسانية بما كلفت به أكبر فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته.»

هذه القواعد رفعت نفوس المسلمين من ذلة الاسر لنفس بشرية أخرى وسمت بها عن التقيد باشارة غيرها لعلمها بأنها هى التى ستدان وحدها عما جنت وتسأل عما كسبت وأنه لن تغنى عنها نفس مثلها مهما علت وسمت بمثل هذه الأساسات تتأسس روابط المؤاخاة وتتأكد عرى المساواة ولا يكون السواد الأعظم من الناس مقودين إلى طائفة قليلة منهم يسيرونهم كيف يشاؤون ويوجهونهم إلى حيث يريدون. نعم بمثل هذه القواعد تسود المساواة. أتدرى ما نتائج المساواة؟ المساواة هى مبدأ أولى لمعا

الحقوق والواجبات وأعظم مؤيد للعدالة والحرية بين سائر الأفراد. لمساواة هى الفاروق الأكبر بين العدالة الحقة وبين العدالة الوهمية التى تنخر عظام الأمم وتمتص دم حياتها . قال نابليون : « المساواة هى ينبوع كل عدالة سواء كانت بين الشعوب أو بين الأفراد » وقال الفيلسوف (كوندرسيه) : « المساواة الطبيعية لبنى الانسان هى القاعدة الأولى لمعرفتهم بحقوقهم وهى أساس كل الأخلاق الحميدة »

ونحن لا نود أن نختم مقالنا هذا حتى نثبت أن المساواة التى تتمتع بها الشعوب المتمدينة الآن ليست بقديمة العهد بل هى نبت الثورات الدموية التى حصلت فى أواخر القرن الماضى . قال الفيلسوف (فرنك) : « إن المساواة المدنية التى تأسست منذ نصف قرن عند بعض أمم أوروبا آخذة فى الانتشار عند الأمم الأخرى تدريجاً ونحن أما يحق لنا أن نتلوا قوله تعالى : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . »

٢

حرية العقل

ان أكبر خصائص الانسان شأناً وأعظمها أثراً هى قوته العقلية . قلنا أن الانسان لم يخلق كما خلق الحيوان مطبوعاً على عمل ما يقيم أود حياته بل خلق مجردا عن كل علم بما يستلزمه أمر بقائه . الا أنه منح فى مقابل تلك الجهالة القوة العقلية التى تكبر وتنمو بزيادة المعلومات فتغنى الانسان عن كل سوق طبيعى وترفعه تدريجا من الوحشية المظلمة إلى المدنية النيرة . ولكن منيت هذه الخصيصة الكبرى مثل سائر الخصائص العظيمة الأخرى لحكمة يعلمها الله تعالى بمن يسيطر عليها ويمنعها حينا ما من تأدية وظيفتها على حسب قانونها المرسوم لها من القدم

لم يتربص مذللو النوع الانسانى لمواهب الانسان أكثر من تربصهم

لهذه الموهبة الكبرى لعلمهم أنها السلاح الحاد الذى لو جرد من غمده لم تقف أمامه جيوش الاوهام ولا ظلمات الأحلام فشددوا النكير عليها تشديداً حرم الأنسانية من أعظم خصائصها حتى صرحوا بأن استعماله فى فهم مايقولون يفضى إلى الالحاد . فوقع الناس فى ظلمة من الجهالة أفضت بهم إلى حالة من الوحشية يحدثنا التاريخ بها وهو خجل من نفسه ناقم على أمسه . كان هذا حال الأمم فى الحين الذى كانت فيه أصول المدنية الحقة وحرية العقل يمليها الحكيم العليم على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم . فبينما كان المسيطرون على الأمم يصيحون فى وجوه رعاياهم قائلين : « اطفئوا نور العقل . اطمسوا عين البصيرة . فان الدين ينافى العقل » كان رسول الحق يقول لمتبعيه وأصحابه : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له » وبينما كان أولئك القادة الغالون يقولون لمقهوريهم : « تواصوا أيها الناس بترك العقل جانباً فانه يغضب ربكم عليكم ويجلب سخطه اليكم » كان صاحب المدنية الحقة صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم » إلى آخر الحديث

بهذه القواعد الالهية نال العقل حريته وتخلص من وثاق كان يئن منه ويتعثر فى أصفاده وصار هو المرشد الحقيق للأنسان وهى الوظيفة التى خلقه لأجلها الملك الديان كما صار هو المميز الأكبر لأفراد النوع الأنسانى فى الأفضلية بعد أن كان المميز فيها العبادة الظاهرية والتقوى العضلية . قال عليه الصلاة والسلام : « لايعجبنكم اسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله »

ماذا تفيد الأنسان عبادته الظاهرية وأفعاله العضوية بينما يكون هو يضعف عقله عرضة لكل أنواع الافراط والتفريط ، يضع الأمور فى غير

مواضعها . ويزن الأشياء بغير ميزانها فان كلف بأداء وظيفة أساء استعمالها وأخل أعمالها لظنه الظلم عدلا والعدل ظلماً ؟ ألسنا نرى كثيرا ممن يدعون الصلاح والتقوى صاروا جوائح أممهم وبوائق وطنهم بمحض ضعف عقولهم؟ أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال : « إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر . وإنما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم »

هذا هو مقدار تشريف الديانة الاسلامية للقوة العقلية . ولكن أتدرى ماذا كانت نتيجة تحرير هذه القوة الجليلة عند الشعوب المتمدينة بعد مانالوها ببيع الأنفس رخيصة فى سبيلها ؟ كانت نتيجته تمتعهم بكل ما تراه من عظمة مدنيتهم وشدة صولتهم وقوة شوكتهم . كانت نتيجته اهتداءهم إلى طرق السعادة الدنيوية ومناهج الرفاهة المادية مما نراه ونسمع به عنهم . قال لاروس : « إذا بحثنا بدون حيف ولا وهم عن سبب الرقى الذى حصل فى العالم المادى والفكرى والخلقى من منذ طفولية الجمعيات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا تخلص العقل من الضغط عليه » ونحن لا نود أن نقفل باب هذا المبحث حتى نثبت للقارىء أن تحرير هذه القوة العقلية ليس ببعيد العهد عنا وأنه لم يحصل إلا بعد جهد جهيد وجلاد شديد . قال (لاروس): « من منذ زمن الاصلاح الدينى لغاية الثورة الفرنسية استمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محررى العقل وبين الضاغطين عليه من القدم . ولأجل الاعراض الكلى عن أساطير الماضى ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنسية فى ترميم ماتهدم من أركان الجمعية وصار تعليم النشأة الجديدة من أهم اشتغالاتها » أما نحن فنقول : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »

٣

حرية العلم

نسبة العلم إلى القوة العقلية كنسبة الغذاء إلى الهيئة الجسمية . فكما أن الجسم ينمو ويزيد بتمثيله أنواع المواد الأرضية كذلك القوة العقلية تكبر وترتقى بتمثيل النظريات العلمية والمعلومات الخارجية . لهذه العلة أخذ مذللو النوع الانسانى فى التشنيع على العلم والتنديد به وبمحبيه وحكموا أنه الرجس الذى لا يصح أن يحام حوله أو يقصد حوضه . قال لاروس فى دائرة معارفه : « أما هم فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التى تقتل بأثمارها بنى آدم » نعم انهم تصدوا العلم تصديا منع الناس عن ذكر اسمه والعروج على رسمه . وأخذوا يحرفون فلسفة الأقدمين لتنطبق على أوهامهم وتتوافق مع أحلامهم حتى لم يبق منها الا هيكل مشوه يفرق العقل من رؤيته ويأنف من روايته

زعموا أن لديهم العلم الذى لاجهل معه والكنز الذى لا يفتقر من جمعه فحكموا أن كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجا عن نطاق التحقيق ولا يقول به الا زنديق فيسرعون بالحكم عليه بأقصى ما يتصوره العقل من العقوبة الجسمية مما يروع الجسور ويزع الصبور فأماتوا بهذه الطريقة عددا عظيما من الحكماء بتهمة أنهم يسعون فى زيادة مواد العلم ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر

بهذه الوسائل الجبروتية سكنت عاطفة العلم ولم تفعل الا أن أقامت الحجة بلسان النواميس الحيرية وكانت تلك الحجة الناطقة هى سيادة الجهالة والأضاليل ورواج أسواق الأوهام والأباطيل حتى تغلبت الأميال

البهيمية على العواطف الانسانية وعدا الأقوياء على الضعفاء فسلبوهم كل مزايا الحياة وحقوق الطبيعة ودام الهرج والمرج سائدين على أحوال الانسانية حتى بلغ السيل الزبى ولم يبق فى القوس منزع . فجاء دور الثورات الداخلية والمقاتلات الدموية طلبا لتحرير العلم من ربقته الجهنمية وكان ما كان مما يعلمه من ألم بتاريخ ذلك الزمان .

هكذا كان حال الأمم قاطبة بينما كانت الحقائق الالهية تنزل من السموات العلى على سيد الملا صلى الله عليه وسلم وتملى عليه أصول المدنية الحقيقية والعلم المطلق من قيود العبودية . جاءت الديانة الاسلامية فاكة أصفاد العلم ، حالة أغلال المعارف ، مقررة انه من الظلم الشائن والاعتساف المهين تقييد العلم بقيد أو تحديده بحد فقال عليه الصلاة والسلام : « من قال ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله بها حيث يقول : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

صرح الاسلام عن لسان الحكيم العليم فى قرآنه القويم بأن فهم حكمة الخالق فى كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لا يتأتى إلا بانارة الفكر بانوار العلوم وتقويم النظر ببداهة المعقولات فقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ولم يكتف بهذا بل أنذر المتكاسلين عن طلب العلم بسوء المنقلب وبالطبع على قلوبهم برين يؤديهم إلى سوء العذاب فقال تعالى : « ولئن أتيتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . »

بمثل هذه الآيات البينات فتح الاسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة والمعارف الحقة وأراهم أن طلبها والسعى فى اكتسابها هو من أعظم ما يعبد به الخالق جل شأنه فقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل العبادة طلب العلم »

وقال عليه الصلاة والسلام : « نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة »

لم يحصر الاسلام العلم فى بلد من البلدان ولا عند طائفة من بنى الانسان بل أمرنا باصطياد شوارده حيث كانت وأنى وجدت فقال عليه الصلاة والسلام : « اطلب العلم ولو بالصين » وقال عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت ممن هو مناف له اعتقاداً أو مغاير له وجداناً ، بل يكفيه باعثا لأخذها كونها حكمة وكونها مما يرفع شأن الانسان ويزيل من جهالته . قال عليه الصلاة والسلام : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت . »

أتل آى القرآن الحكيم بتدبر وروية تر آيات صوادع تزع الانسان عن الغفلة عن العلم وتردعه عن الاغضاء عن نواطق الحكم تر الجبار الأعلى ينادى عباده بلسان الرحمة قائلا لهم : « انظروا ماذا فى السموات والأرض . » ويبكت المقصرين فى النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . » وينذر الذين يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الأكوان الباعثة لمزايا العرفان بقوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . »

هذا هو شأن حرية العلم فى الاسلام . فهل وصل الأولون والآخرون إلى إعلاء شأنه واكبار مقامه إلى أكثر مما رأيت فى هذه الآيات التى تبعث الجماد فضلا عن الانسان ؟ وهل هذه الحرية العلمية بعيدة العهدة عن أبناء هذا العصر ؟ كلا . قال المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية فرنسا السابقين وأكبر علمائها الكيماويين : أن العلم لم يتوصل إلى نيل حريته إلا

من منذ مائتين وخمسين عاماً : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . »

الواجبات الشخصية والبيتية والاجتماعية

قد أتممنا الكلام بوجه الايجاز على الثلاثة الأنواع من الحرية التى انبنى عليها كل الرقى الذى حصل فى العالم المتمدين وأقمنا الأدلة الحسية على أن كل تلك القواعد الأساسية الممدينة ليست إلا شعاعاً من أنوار الديانة الاسلامية. ولكن هناك قواعد ثانوية أخرى هى نتائج تلك القواعد الرئيسية يجب علينا أن نتكلم عنها بوجه الايجاز حتى نرى لكل من عنده مسكة من العقل تفسير قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء . » فنقول والله المستعان :

الواجبات الشخصية

كل إنسان يشعر بأنه مكون من جوهرين متميزين عن بعضهما هما الجسم والروح . وإنهما متحدان مع بعضهما على تغاير طبيعتيهما اتحاداً غريباً بطريقة بها يتأثر أحدهما إذا تأثر الآخر ولو كان نوعا التأثرين والمؤثرين متباينين جداً . وبناء على هذه النظرية اهتدى النوع الانسانى إلى أن مناط السعادة المتمناة هى حفظ هذين الجوهرين من أن يعتريهما ما يخل بوظائفهما فصار الاعتناء بكليهما ضربة لازب

قال لوك : « السعادة التى يمكن للانسان أن يتمتع بها فى هذه الدنيا تستلزم أمرين اثنين عقلا صحيحاً وجسما سليما . هاتان النعمتان هما مستقر كل النعم الأخرى ويمكن أن يقال إن من توفرتا عنده لم يبق فى نفسه حاجة لغيرهما . ومن حرم من احداهما فلا يتصور أن يكون أسعد ممن يملكهما

معاً مهما كان متمتعاً بمزايا أخرى لأنهما السبب الأول للسعادة والشقاء. فالذى لا يكون مالكا لعقل سليم لا يهتدى عمره لطريق السعادة البين. والذى لا يكون جسمه صحيحاً لا يستطيع أن يخطو فى ذلك الطريق خطوات مهمة.»

إذا تقرر هذا نقول ان الانسان متنازع بين نوعين من المطالب وهما مطالب روحية تستلزمها سعادته النفسية ومطالب مادية تستوجبها سعادته الجسمية. أما المطالب النفسية فهى مجموع قواعد لا يقصد بها إلا الحصول على صحة النفس البشرية وجعلها صالحة لتأدية وظائفها التى خلقت لها كما أن المطالب الجسمية هى مجموعة قواعد لا يراد بها إلا صحة الجثمان وتمكينه من تأدية وظيفته المطلوبة منه فى الحياة الدنيا. نقول ان إدراك أن السعادة الانسانية المتمناة هى إصلاح حالة النفس والجسم معاً وحفظ النسبة بين مطالبهما صارت الآن من البداهة التى لا يمترى فيها عند علماء العالم أجمع وقد سبقهم الاسلام إلى تقريرها أيام كان الناس يبحثون عن السعادة فى سكنى الجبال وبالزهادة الكلية أو بالافراط فى الملاذ البدنية واطراح كل مزية فكرية. ولنتكلم عن ذلك ببعض تفصيل فنقول:

إن من يتدبر بعين البصيرة فى أحوال الخلق ير العجب العجاب فى تباين فطرهم وتخالف استعدادهم فيرى هذا معتدلا وذاك مفرطا وذلك مفرطا وبين هؤلاء درجات لا يحصيها إلا خالقها وكلهم متباينون فى الأعمال والاعتقادات متخالفون فى المشتهيات حتى لا يمكن التوفيق بين فؤادين كما لا يمكن الجمع بين ضدين. كل ذلك مع وحدتهم فى النوعية واشتراكهم فى الانسانية. لماذا ياترى هذا التخالف الشديد بين أفراد النوع الانسانى؟ أليس هذا دليلا محسوساً على أن هناك أمراضاً وأعراضاً قد تعترى النفوس البشرية فتشوه من صورها المعنوية كالأمراض والاعراض التى تنتاب

الأجسام فتشوه من صورها المادية ؟ ثم إذا رأيت أن لاهياً أقلع عن لهوه وغويا ارتدع عن غيه بتأثير موعظة أو رهبة . أليس فى هذا دليل واضح على أن أمراض النفوس قد تزايلها إذا صادفت علاجها الحقيق ؟ نعم إن النفس تكون فى مبدأ أمرها طفلة مستعدة للانصباب فى كل قالب ، فان منحت مربياً حكيما فى أول نشأتها شبت على حسب تعاليمه نفساً حكيمة زكية . وإن منيت بمرب مهمل أو تركت لرحمة المؤثرات الرديئة نشأت نفساً شريرة تورد صاحبها الموارد الشائنة وتوقفه المواقف المهينة . وعلى هذا فيكون حال النفس من حيثية قبولها للمرض والمعالجة مثل حال الجسم سواء بسواء ولو كانت الأمراض والمعالجة بالنسبة للنفس المعنوية مباينة لأمثالها بالنسبة للجسم المادى .

الآن سهل علينا التكلم على كيفية تربية النفوس وحفظها من الأمراض وطريقة جعلها صالحة لتأدية وظيفتها . فما هو السبيل إلى ذلك ؟ لا سبيل إليه إلا بأربعة أمور : (أولا) تطهيرها من أدناس الأوهام . (ثانيا) تهذيبها بالمعلومات الصحيحة . (ثالثا) تعويدها على مكارم السجايا . (رابعا) تصحيح اعتقادها . ولنفرد لكل من هذه الأمور الأربعة فصلا مخصوصاً فنقول :

تطهير النفس من الاوهام

قلنا فى السابق أن المشابهة تامة بين قواعد حفظ صحة النفس وبين قواعد حفظ صحة الجثمان . والآن نقول أن أول أمر يجب أن يعتنى به الانسان لحفظ صحته الجسمية هى تطهيره دائماً من اوضار الأدناس التى لا تفتأ تعتريه فى أثناء تأدية وظائفه الحيوية وأنه لو أهمل ذلك التطهير أفضى به الأمر إلى طروء المرض على جسمه وانهاكه تدريجاً لقواه حتى ينتهى أمره بالموت .

إذا تقرر هذا نقول إن الأوهام الفاسدة والأباطيل الكاذبة هى بالنسبة إلى النفس مثل الأقذار بالنسبة إلى الجسم فيجب الاهتمام بازالتها بالوسائل الفعالة قبل أن تتراكم على النفس فتمرضها وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها. فقد شوهد أن خرافة واحدة قد تلم بالنفس فتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى . وحرمانها من هذه المزايا يؤدى إلى حرمانها من لوازمها فتقع فى أمراض يعبر عنها بمثل الجبن والحقد والبغض وهى الأمراض التى يضحى فلاسفة الأخلاق كل أوقاتهم للسعى فى إزالتها حتى انك لتراهم يحذرون الكافة الوقوع فى أشراك الخرافات كما يحذرونهم من الابتعاد عن أنياب الأراقم ومخالب الضراغم مبرهنين لهم أن كل الفساد الذى طرأ على العالم فى القرون الخالية كان بسبب احنائهم رؤوسهم لكل ما يقال واتباعهم كل مايرسم أمامهم بدون برهان ولا دليل

سبقهم الاسلام إلى تقرير هذه القواعد فحذر متبعيه من الوقوع فى أوهاق الأضاليل وأراهم أن أكثر مايدعو الناس إليه يزرى بالعقل ويبعد عن سبيل الحق فقال تعالى : « وأن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » وقرر أن الانسان سيقف غداً بين يدى الله فيسأل عما حمل نفسه إعتقاده من الأباطيل التى لم يقوها الدليل ولم يصحبها البرهان فقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ثم حكى لنا حال الضالين وأرانا أن ضلالهم هذا نتيجة اتباعهم للظنون والأوهام وحكم عليهم بما هم أهله من سوء المنقلب فقال تعالى : « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون »

تهذيب النفس بالعلم

قلنا فيما سبق أنه يجب تطهير النفس من الأوهام كما يجب تطهير الجسم من الأقذار والآن نقول أن التطهير المادى كما يحتاج إلى مطهر خال من الجراثيم المرضية وآت من المنابع الصحية كذلك تحتاج النفس إلى مطهر يطهرها من أوهامها ويخلصها من أقذار وساوسها وهذا المطهر الخالى من المكاريب هو العلم المثبت بالتجربة المستدل عليه بالمحسوسات . هذا أمر واضح لا يمترى فيه العقلاء وأول من سنه فى العالم المتمدن هو (ديكارت) الفيلسوف الذى كان عائشاً فى القرن السابع عشر ومن ذلك الحين جرى العمل بمذهبه فى تمحيص المسائل العلمية إلى الآن .

سبق الاسلام كافة البشر الى تقرير القواعد الحقة لضرورة تطهير النفس وتهذيبها بالعلم والحكمة كما كان السابق الى الحكم بلزومه للجنسين الذكور والاناث معاً فقال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . » وقال عليه الصلاة والسلام : « أطلب العلم من المهد الى اللحد . »

هذا ولم يترك الاسلام باباً تنساب منه الأباطيل إلى العلم إلا سده ولم يسم الشىء علماً إلا اذا قواه الدليل وقامت عليه الحجج الناطقة فقال تعالى : « ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون . »

صرح القرآن الكريم بأن كثيرا من الخلق تحسن لهم أهواؤهم تلبيس الحقائق لحاجة فى أنفسهم وحذر من السقوط فى مخاتلهم ووسمهم بأنهم المعتدون الذين يجب أن يلفظوا لفظ النواة ويعاملوا بما هم أهله من الأقصاء . فقال تعالى : « وان كثيراً من الناس ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك هو أعلم بالمعتدين » وقال تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ثم حكى لنا حال الذين يتابعون أهواءهم ويتبعون أفكارهم

فأنذرهم بسوء المصير وشر المنقلب وقرر بأن لن يغنى عنهم قولهم انهم مقلدون لسواهم فقال تعالى : « واذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار . »

يصيح الاسلام فى الناس صيحة توقظ الراقد وتبعث الصاحى مبرهناً لهم على أن الحاجة إلى العلم ليست قاصرة على الحياة الأخرى فقط ولكنها تسرى على أحوال الحياة الدنيا أيضاً قائلا لهم إن صلاح الشؤون الدنيوية وقوام الأعمال الحيوية لا يتأتى إلا به . قال عليه الصلاة والسلام : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم . »

يرمى الاسلام المقصرين عن طلب العلم بأشد ما يرمى به مقصراً فى واجبه ناثماً عن مطلبه . قال عليه الصلاة والسلام « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا عالما أو متعلماً . » وقال عليه الصلاة والسلام : « إنه لا خير فى العيش إلا لعالم ناطق أو لسامع واع . »

ينذرنا الاسلام بأنه سيأتى زمان يروج فيه سوق الالحاد ويرمى الاسلام بما ليس فيه وينشأ فيه من العلماء المنافقين من يدسون الأباطيل إلى الدين ليهدموا صروح الاسلام ويقوضوا من أركانه بأنواع الحيل الجدلية التى تدق على غير الواقفين على حقيقة الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم : « ستكون بعدى فتن يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً إلا من أحياه الله بالعلم . »

الاسلام يصرح لنا بأن الجهل والاسلام ضدان لا يتفقان وأن التدرج فى فهم القرآن مرتبط بازدياد العرفان وأن الراضى بالجهالة يكون راضياً باستمرار جهله بكلام ربه المقصود منه تربيته وتطهير نفسه وفى هذا من الخسارة ما لا يقدره الحاسون قال الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها

للناس وما يعقلها إلا العالمون . » وقال عليه الصلاة والسلام : « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم . »

هذا هو مقدار تشريف الاسلام لمقام العلم والحث عليه وقد رأيت أنه أشد تأثيراً على النفس وأكثر تحريضاً لها من كل ما نسمعه من قادة المدنية ونصراء التنور : « ومن أحسن من الله حديثاً . »

تأديب النفس بمكارم الخصال

يعلم كل إنسان أن للنفس أميالا تشعر بها وتنفعل لها ولا تستطيع الانفكاك عنها كما يوجد للجسم احتياجات يجب امتاعه بها لحفظ موازنته وعدم الاضرار بكيانه . فكما أن الجسم يشعر بالجوع والعطش والبرد والحر وغير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية مما يجب الاهتمام باعطائه حاجته منه أو وقايته من تأثيره . كذلك تشعر النفس بحاجتها إلى أشياء وهي وان لم تكن جوعا ولا ظمأ ولا برداً ولا حرا إلا أنه لا فرق بينها وبين الجسم فى الاحتياج الى أخذ ما يقوم بحياتها منها .

نعم للنفس أميال ومطالب وهي وان كانت لا تحصى فى صورها ولا تحصر فى أشكالها إلا أنها دائرة على محور واحد ألا وهو ميلها الفطرى الى نيل كمال تشعر به فى صميم فؤادها ولا تستطيع التخلف عنه إلا أن تموت بحسرة .

اهتم عقلاء العالم من القدم بتهذيب أخلاق النوع البشرى ولهم فى ذلك مذاهب يضيق الكلام عن إيرادها ولسنا نكلف أنفسنا إقامة الدليل على عدم صلاحيتها إلا باستلفات النظر إلى أحوال الأمم العظيمة ذات الشهرة التاريخية . نعم ان أقل نظرة فى شؤونها واتجاه أميالها تدلنا دلالة صريحة على أن قادتها لم يقفوا على الناموس الأعظم فى تربية الاحساسات وتهذيب

الطباع وهو ناموس الاعتدال . بل نرى أن منهم من جعل محاسن الأخلاق قاصرة على أمته وأباح ارتكاب الرذائل ضد سواها . ويرى هذا الأثر بغاية الوضوح فى كثير من الأمم التى كان لها سلطان قوى على غيرها ولدينا على صدق هذه الدعوى أدلة لا يستطاع دحضها بوجه من الوجوه وهذا كما لا يخفى تفريط فى حق الكمال لايمكن به الفؤاد ولا يرتاح له الوجدان ويقطع الطريق على النفوس فلا تستطيع أن تتابع السير إلى غرضها الكمالى الذى فطرت مسوقة إلى تلمسه وتحسسه . ومنهم من أفرط فى كبح جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من أميالها واحساساتها لدرجة تضيق الذرائع عن تحملها إلا لوقت محدود .

هذا الافراط كانت نتائجه لا تقل عن نتائج التفريط الذى سبق ذكره فلم يسر على أفراد أمة إلا وأخل نظامها وقوض أركانها وجر إليها من الفتن الاجتماعية ما يطلب علمه من مطولات التواريخ . هذا الافراط فى ترويض النفوس يصادف غالباً فى الأمم التى أساءت فهم دينها ولم تقف عند الحد الذى قرر فى شريعتها الأصلية . نعم لا نشك أن من الأديان من جاء آمراً بالزهادة المطلقة والخروج الكلى عن دائرة الأشياء الأرضية . ولكن غاب عن أهل هذه الأديان أن هذه الديانات لها زمن محدود ويستحيل أن يعمل بها بعد مضيه وانها لم يقصد منها إلا إحداث حادث فى الوجود يراد منه إعداد النفوس لارتقاء درجة نهائية لا يمكن أن تتيسر إلا بعد أن يمهد لها الطريق بتهيء الطبيعة الانسانية لقبولها . وهذه الدرجة الثانية التى ندعى انها غاية مما يمكن الوصول إليه فى تحديد الشهوات والنزعات هى خطة الاعتدال .

نعم الاعتدال هو الناموس الأعظم الذى ينبنى عليه قوام كل شيء ويحفظ به كيان كل شيء . أتريد برهاناً على ذلك ؟ أنظر إلى جميع الكائنات السفلية

والعلوية من أول الذرة المادية البسيطة إلى أكبر نجم فى قبة الفلك ترها كلها ألسنة ناطقة بأن الاعتدال مساكها وملاكها وأن به كمالها وانتظامها . نعم الاعتدال هو نظام كل شىء فلا تستطيع أن تعلل كمال شىء من الأشياء إلا به كما لا يمكنك أن تعزو الاختلال فى شىء إلا لفقدانه . لم يبق ريب الآن عند علماء الأرض كافة فى أن الاعتدال هو القاعدة التى يجب أن يبنى عليها كل عمل وترد إلى حدودها كل حاجة سواء جسمية أو نفسية. ذكر لاروس أحوال طائفة من متعبدين زعموا أن نيل الدرجات الزلفى فى الآخرة لا يتأتى لهم إلا بقتل جميع خصائصهم النفسية وحرمانها من كل ما تتوق إليه طبيعتهم بأنواع من الترويض تكل عن احتمالها طاقة البشر ونسب إليهم من الفظائع والأمور الوحشية مالا يصدر إلا ممن مسهم ضرب من الجنون الشديد ثم قال : « هؤلاء المتعبدون الذين يريدون أن يميتوا تأثير الطبيعة عليهم صاروا فى الحقيقة ضحايا شهواتهم التى تنهشهم : لأنهم بدلا عن تنظيم حالة نزعاتهم باعطائها مطالبها فى حدودها المعتدلة أرادوا بجنونهم أن يستأصلوا شأفتها . »

كان هذا شأن سائر الأمم فى الافراط فى شهوات النفوس وأميالها أو التفريط فى كبح جماحها حتى اسفرت سماء الحق بنور الاسلام وانكشف عن محيا الفضيلة الحقة كل لثام فنزلت آى الله تعالى منددة بالغالبين والمقصرين منذرة إياهم بسوء المنقلب فى الدنيا ويوم الدين مقررة أصول الاعتدال على قسطاس مستقيم مدعمة قواعد الفضيلة على نموذج حكيم .

نظرت الى منازع الأنفس نظرة الحكيم الخبير فلم تقرر لزوم قتل واحدة منها بل عالجتها من حيث يعالج الطبيب المريض بارشادها الى ناموس الاعتدال وأريتها أن الزيغ عنه إلى الافراط أو التفريط يفضى بالانسان الى

ما لا تحمد مغبته ولا تسر عاقبته . علمتنا هذه الآى الكريمة ان الله تعالى لم يخلقنا من عالم العدم الى باحة الوجود ليعذبنا بأنواع العبادات الشاقة التى تميت إحساسات الأنفس وتخرجها عن دائرة الكمال الانسانى بل خلقنا ووهبنا كل ما نحس به من العواطف لنبلغ به ما أعد لنا من الرقى النفسى بسيرنا على مقتضى الحكمة الصحيحة وأرتنا أن كل ما أمرنا به من أنواع العبادات الجسمية أو القلبية لا يقصد به الا تلك النتيجة . قال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

يصرح لنا الاسلام بأن الغلو فى الدين ليس من الأمور التى يكلف الله تعالى بها عباده بل أنه ينزه عن أن يحملهم فوق مقدور طاقتهم : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . » بل كلما يدلنا التاريخ عليه من آثار الغلو الذى أهلك الأمم وأبادهم هى من مخترعات أفكارهم . قال عليه الصلاة والسلام : « إياكم والغلو فى الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين . » تصدى الاسلام لمن يظن أن التهالك فى العبادة واضناء الجسم فيها مما يبرهن للخالق جل شأنه على شدة الاخلاص فقرعهم على ظن أفضى بهم إلى وصف الله تعالى بغير صفاته الكمالية وأنذرهم بأن تهالكهم هذا فضلا عن كونه ذاهباً سدى فانه يجر عليهم سخط الخالق وغضبه . قال عليه الصلاة والسلام : « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الذنب مثل جبال عرفة . »

الاسلام دين السعادتين وناموس الحياتين . لم يقرر فى أصوله الانقطاع الى التبتل : « من تبتل فليس منا » ولا تجنب الحياة الاجتماعية والمسائل الحيوية بالهرب الى رعان الجبال والانقطاع عن سائر الأعمال . كلا . كل ذلك مما ينافى الاسلام ويستلزم غضب الملك العلام . روى أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « لا تفعل أنت ولا أحد منكم ، لصبر أحدكم ساعة فى بعض مواطن الاسلام خير له من عبادة

أحدكم وحده أربعين عاماً . » هذا شأن الاسلام فى الاعتدال فى الدين الذى هو مالك لأزمة النفوس وقائدها إلى نعيمها فى الحياتين ولا يختلف عن هذا شأنه مع أميال النفس ومطالبها . فقد قررنا أنه لا يأمر بقتل عاطفة ولا بأماتة نزعة بل يسعى فى جعلها معتدلة قويمة بلا إفراط ولا تفريط . فالسخاء مثلا وهو ذلك الخلق المحمود لا يعد فضيلة فى الاسلام إلا إذا روعى الاعتدال فيه وبدون ذلك يكون ذنباً يحاسب الانسان عليه . قال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا . » « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا . »

ثم ما قولك فى التواضع ؟ التواضع هو ذلك الخلق المحمود الذى يرفع صاحبه عفوا الى مقام الشرف والمجد وهو من السجايا التى يحثنا الاسلام على التخلق بها . قال عليه الصلاة والسلام : « لو كان المتواضع فى قاع بئر لبعث الله اليه ريحاً ترفعه . » ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتأخر عن تحذيرنا من الافراط فيه لدرجة تفضى بنا الى المهانة والصغار وترمينا الى حضيض المذلة والابتذال وينبهنا الى التفرقة بين من من الناس يحسن لديه التواضع ومن منهم يليق الترفع لديه حتى يكون الرجل بمثاله منبها كما هو بمقاله واعظا . قال عليه الصلاة والسلام : « ومن لا يوجب لك لا توجب له ولا كرامة ، لاتصاحب من لا يرى لك من الفضل كمثل ماترى له ، إذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ، الكبر على أهل الكبر صدقة . »

وهكذا ترى الاسلام مع تعليمنا بقدر مكارم الأخلاق وبتأثيرها على مراكزنا فى الحياة الأخرى يرينا جادتها الحقيقية وخطتها الحكيمة حتى لا يكون الانسان حلواً فيؤكل ولا مراً فيلفظ كما هو معنى حديث شريف

وهو الأمر الذى ينافى شؤون الحياة الاجتماعية ويعطل من رقيها كثيرا .

قل لى بأبيك ماذا يكون شأن الطغاة فى أمة أفرطت فى السجايا المحمودة وأخرجتها عن حدودها المعتدلة وإلى أى نقطة تصل شرة المعتدين إذا صادفوا عند كل جريمة عفوا وبأزاء كل رذيلة سماحاً ؟ أما تكون النتيجة تمادى الباغين فى بغيهم وإخلالهم بمسببات الأمن والطمأنينة ؟ أما تكون النتيجة حرمانهم من التهذيب والأدب وهما الأمران اللذان لا يتمان إلا بالعقوبات الرادعة والأحكام الصادعة . قال عليه الصلاة والسلام : « إقامة حد من حدود الله فى الأرض خير من أن تمطروا أربعين يوماً . »

للحياة الاجتماعية شئون يضيق كتابنا هذا عن درس بعضها درساً سطحياً وهى تستلزم يقظة من كل عضو فيها وجلدا على تحمل عواديها وفطنة على حل مشكلات دواعيها . بل هى الحرب العوان التى يصلاها الانسان من يوم ميلاده إلى يوم نهاية حياته . حرب أعلنتها المطالب الجسمية والنفسية وشبتها الضرورات الحيوية . حرب لا مناص منها لمن أراد الكمال وتوسم العلاء فى دار المآل . حرب أذن الله أن يشب لهيبها ويتأجج سعيرها لتبعث النفوس إلى إظهار خفاياها وتحضها على استعمال خصائصها وسجاياها لكيلا يكون الانسان تائهاً عن أسراره ضالا عن عجائب أحواله : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون . »

هاهى العائلة : قل لى بأبيك كيف يكون حال الأدب فيها إذا كان أبوها مفرطاً فى مكارم الأخلاق افراطاً يجعله يتجاوز عن كل سيئة تصدر من أطفاله ويعفو عن كل ذنب يحصل منهم ؟ أليس يؤول حالهم الى التمادى فى الغى ونشأتهم على عدم احترام القوى الوازعة التى سيصادفونها أمامهم يوم يكونون رجالا عليهم تكاليف الحياة ؟ لا شك أن عائلة رزئت بأب مثل هذا يكون حالها الخلل شأنها الفشل ويكون ذلك الأب فى نظر شريعة

العدل مجرماً يجب تنبيهه الى خطة الاعتدال ، ان صح هذا فى العائلة فهو فى الجمعية أصح وأصرح .

جاء الاسلام فأنقذ النفوس الانسانية من شقاء التفريط فى الأميال النفسية والافراط فيها وخط للبشر خطة معتدلة تلائم سنة الوجود وتناسب قوانين الحياة مما يسمح للنفس أن تنال حريتها الحقة فترتقى فى معارج الكمال بانتظام وسلام : « وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . »

تصحيح الاعتقاد

قد تكلمنا فى فصولنا السابقة على لزوم تطهير النفس من أوضار أوهامها بالمطهر الملائم لها وهو العلم الصحيح واستكنهنا لها سر صحتها وهو قانون الاعتدال فى أمتاعها بجميع أميالها ، وبقى علينا الآن معرفة ماهية سعادتها واطمئنانها فنقول : انا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة ممتعة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة كأن لهم فى كل لذة ألماً وبازاء كل فرح ترحاً . يحسون بكآبة قد رانت على صدورهم فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لا تزايلهم الا بزوال عقولهم عنهم بكأس من الرحيق فلذلك تراهم شديدى الكلف به كثيرى التحرق لفقدانه لأنه دواؤهم الوحيد .

ما سر هذا الأرق والضجر مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية وهما الأمران اللذان عليهما (كما يقال) مدار السعادة الأنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية مع تهذبهم بأنواع العلم وهو كما يزعمون

الشاقى للناس من نزعات الوسواس ؟ أما يدلنا هذا الضجر السرى على أن النفس تائقة لأمر ما أن غاب على الانسان علمه فقد دله عليه أثره ؟ وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ولا سكنى القصور ولا أكل الصنوف ولا سماع العيدان ولا مغازلة الغيد ، بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء ولا الأكوان بجانبه إلا فناء ! ماهو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ورضيت به وقنعت ؟ هو لا شك صحة المعتقد وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء ولا من طينة هذه المادة العمياء حتى تأنس إلى شيء من أشياء هذه الأرض الحقيرة أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة ، بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا لنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة لتشرف على حضرة القدس المنيفة وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجل من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فمهما غالط الانسان نفسه بجمع المال ورفاهة الحال ليرتاح سره ويسكن اضطرابه فان النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ليهتدى الى وضح المحجة . فان تبصر فى أمره واكتنه حقيقة سره وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجو لها سكن فؤاده وآب اليه رشاده ولو كان جسمه بين القنا والقنابل وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل الى ابلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها وامتاعها بطلبتها من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له . »

العقل فى النوع الانسانى خصيصة من أجل خصائصه ومنحة من أفضل منح الله عليه لو استعمل فيما وضع له واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسير الانسان غور هذا الوجود العظيم على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده ويستكنه

سير النواميس السائدة عليه فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل وعلى تنزه أفعاله عن العبث وصنائعه عن اللهو كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته استدلالا محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الانسان أحوال الجمعيات البشرية فيرى نواميس رقيها وهبوطها وأسباب رفعتها وضعتها ويتبصر فى أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين فيستدل بالتدقيق فيما جاؤا به وفى الآثار التى تركوها على معنى النبوة وضرورتها للبشر وحكمة الله تعالى فى اختلاف المدارك والاحساسات وفى تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الانسان بين أحوال الماضى والحال فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة ويعثر بتعضيد العلم والبداهة على الديانة التى يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها وباقية بقاء النوع الانسانى.

قضت مراحم الله جل شانه أن يكون الأكوان فى الطبيعة على ترتيب محكم ينطق بلسان الصمت للمتبصر ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ويحبب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ولا يؤوب من استبصاره بندامة . بدون هذا الاعتبار بالعقل لا يتأتى للنفس أن تصحح عقيدتها ولا يتسنى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هذا ولا تنكر أنه قد مضى على النوع الانسانى زمن كان فيه العقل فى دور الطفولية وكان يكفيه فى الايمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتاً ما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلا يمتعهم بخصائص تعجز عن ا لتناه سرها عقولهم وتندهش لها ألبابهم فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه . وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الانسانى رشده فلا تجدى فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية ، فان حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولا ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا

يعللون معجزاته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان طائفة الاسبيريت الروحيين فى أوروبا تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة مالو رآه الجهلاء لظنوا أنه من أكبر المعجزات . مع أن القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة ، نعم لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولكنه بدون شك يقلل من أهميتها فى نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وإن كان تهوراً منهم إلا أنهم مصيبون فى قولهم إننا فى زمان لايجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلى والدليل العلمى . ومن أقرب الشواهد لذلك ما كتبه المسيو (هنرى برنجيه) فى مجلة المجلات الصادرة فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ . قال مامعناه : « إن العلم والتاريخ قررا بطلان كل هذه المعجزات (معاذ الله) ولكنهما لم يستطيعا إن ينكرا الروح التى بعثت إليها . أما نحن الآن فلسنا بمحتاجين إلى معجزة ما فان معجزتنا الوحيدة الخالدة هى هذا العالم العالى الذى لانهاية له فانه أصلح فى إيقاظ احساسنا الدينى من كل المعجزات الماضية . » انتهى

لهذه الأسباب جاءت الشريعة الاسلامية تدعو إلى السبيل الحق ببداهة العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات ، لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتى زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية مالا تؤثره عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . نعم جاء الاسلام يخاطب العقل ويحاسب الفكر ويناقش الفطنة فلا يدعو إلى الاعتقاد بوجود إله حكيم قادر إلا مع تنبيه العقول إلى الدليل الحسى على ذلك ولا ينفى عنه الشريك ولا يثبت اليوم الآخر إلا بتعضيد ذلك بالبرهان وتقويته بالحجة المحسوسة

علم الله أن كثيرا من ذوى الأهواء فى الأمم الطامعين فى الكبرياء والعظم

قد يحسن لهم الطمع أن يدسوا فى الدين أشياء يرغمون بها أنوف العامة ويقودونهم بها إلى حيث توعز إليهم شهواتهم فقرر فى دينه الأخير أن كل دعوة من هذا القبيل يجب أن يطلب الدليل العلمى عليها فانه هو وحده الفارق بين الحق والضلال والمثبط لعزائم أهل البطلان . قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . » وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . »

أنحى الاسلام باللوم والتعذير على الذين ديدنهم تقليد آبائهم تقليدا أعمى والجمود على ما ورثوه منهم من الاعتقادات الباطلة بدون روية ولا تحقيق فأنذرهم بسوء المنقلب وشر العذاب فقال تعالى : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . »

قرر الاسلام بأن حجة الرجل يوم القيامة بأنه إنما قلد غيره وتابعه لا تنجيه من غائلة العقاب مادام له عقل يميز بين الخبيث والطيب وبين الضار والنافع . قال تعالى : « وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد . » وقال تعالى : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . »

صرح لنا الاسلام بأبلغ عبارة بأن الحجة القوية وحدها هى عماد الدين ومساك الاعتقاد فمن فقدها فقد جنى على نفسه جناية عظيمة وأوقعها فى مصيبة كبيرة لأنه يكون بفقدها قد فقد أعظم دعامة يستند عليها يوم الحساب الأكبر . قال الله تعالى : « ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون . »

هذه هى قواعد الاعتقاد فى دين الاسلام وهى مطابقة تمام المطابقة لما أقر عليه جمهور فلاسفة أمم الأرض فى هذه القرون الأخيرة من أن كل قاعدة لا يقررها البرهان يجب أن تسحب عليها ذيول النسيان فقل لى كيف يمكن أن يتطرق الزيغ إلى عقيدة مسلم عالم بحقيقة الاسلام بعد أن يسمع نداء الحق فى صميم وجدانه يزعه عن ورود الأباطيل ويردعه عن التعلق بالاضاليل قائلا له : « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . » ؟ بل كيف يتأتى لمسلم متهذب أن يجارى الهوى ويتبع كل من ضل وغوى بعد أن ينتقش فى جوانح فؤاده ماقاله الله تعالى فى وصف أهل التغفل الذين يقبلون الضلال ويجمدون عليه ويجعلون أنفسهم وقفاً على تصديق الخرافات وهو قوله تعالى : « ولقد ذأرنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون . » اللهم بصرنا بدينك وهو دين المدنية الحقة وهبنا من لدنك ثباتا على اتباع نهجه القويم وارفع عن أفكارنا ما تكاثف علينا من صدأ الأوهام إنك سميع مجيب : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين . »

المطالب الجسمية

قد أتممنا الكلام على المطالب النفسية ولم يبق علينا إلا الكلام على المطالب الجسمية وهو القسم الذى باتحاده بالقسم الأول والتئامه به يتم للانسان الحصول على سعادتيه اللتين يسعى وراءهما من يوم خلق للآن فنقول: تنحصر السعادة المادية فى أمرين هما حفظ الصحة والاعتدال فى التصرف بمقومات الجثمان . فلنتكلم على كل منها فى فصل خاص :

حفظ الصحة

قدمنا فى فصولنا السابقة أن صحة العقل وهو المميز الأول للانسان عن الحيوان تتعلق بصحة الجثمان تمام التعلق وأقل نظرة فى أحوال الانسان تقنعنا بصدق هذه النظرية : وقد أدرك فلاسفة العالم المتمدين هذا السر العظيم فتراهم يهتمون جدا بأمر الصحة اهتماماً لا مزيد عليه ويقررون كثيرا من القواعد المقومة للبدن والمحافظة لقواه ليمارسها الطفل مع القواعد المقوية للعقل والمنمية له فى آن واحد وجعلوا أهميتها لا تنقص عن أهمية تعليم أصول العلم فى شىء . قرروا كل هذا بعد ما زعموا أن الأديان تسعى جهدها فى ملاشاة الصحة ولا تعد بالنعيم الأبدى إلا من لوى الكشح عن أمر جثمانه وتهكموا على هذا ما شاءوا مما لا نرى لزوماً لاثباته هنا بل نقول سبق الاسلام كافة البشر إلى وضع القواعد الصحية الحقيقية المبنية على ارتباط صحة العقل بصحة الجسم وجعلها أساً من أسس الايمان وحمل كافة متبعيه على الائتمار بها والالتفات اليها كما أمرهم بالالتفات إلى غيرها من قواعده ونص بأنها من أكبر المنح التى يهبها الله للعبد ولا يفضلها فى علو المرتبة إلا كلمة التوحيد . قال عليه الصلاة والسلام : « سلوا الله العفو والعافية فان أحدكم لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية . »

ولم يكتف بهذا بل قرر من مبادئه الأولى كل ناموس عام لحفظ الصحة وتقويم الجسم مثل النظافة والرياضة الجسمية والعقلية فقال عليه الصلاة والسلام : « الطهور شطر الايمان » أحب اللهو إلى الله إجراء الخيل والرمى » روحوا القلوب ساعة فساعة . »

أما الامراض فان الاسلام يعتبرها عذاباً من الله تعالى يبعثه على المريض

جزاء على تعديه للنواميس المقررة وعصيانه للقواعد الصحية الثابتة . قال عليه الصلاة والسلام : « المرض سوط الله يؤدب به عباده . » فيجب على المسلم والحالة هذه إذا أصابه مرض — أى سوط عذاب الله تعالى — أن يسعى فى الانابة إلى سبيل الاعتدال فى شؤنه الحيوية ولا يتأتى له هذا إلا باستشارة طبيب حاذق عالم بأصول نواميس الصحة دارس لقواعد الطب . قال عليه الصلاة والسلام : « تداووا ياعباد الله فان الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء . » قلنا طبيب دارس لقواعد الطب لأن الاسلام يحذرنا من الوقوع فى مخاتل الدجالين وينذرهم بالمسئولية العظمى . قال عليه الصلاة والسلام : « من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن . » ثم إن عجزت الاطباء عن مداواة العلة بعد أن يبذل الانسان وسعه فى التعالج فان الاسلام يبشر الصابر على بلائه بأحسن الأجور فى الدار الآخرة . هذا ودیننا القويم يعتبر ضعف البنية وقلة القوة من الاعراض التى تؤخر الرجل عن نيل الدرجات العلا فى الآخرة لأنها غالباً تكون نتيجة الافراط فى أمور الحياة ومقدمات التكاسل عن أداء واجبات الدين ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . »

الاسلام لايبيح لأى مسلم أن يتهاون بأمر صحته لأى غرض كان حتى فى عبادة ربه والاخبات له . روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يارسول الله قال : فلا تفعل . صم وأفطر وقم ونم فان لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فان لك بكل حسنة عشر أمثالها فان ذلك صيام الدهر كله فشددت فشدد على . قلت يارسول الله إنى أجد قوة . قال فصم صيام نبى الله داود عليه السلام ولا تزد . قلت وما كان

صيام نبى الله داود عليه السلام ؟ قال نصف الدهر . وكان يقول بعد أن كبر ياليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم .

لاشك أن كل هذه القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صحته كثير الغيرة عليها وهذا الغرض الذى يسعى فلاسفة هذا القرن أن ينقشوه فى أذهان العامة حتى يهتموا بالنظافة والصحة فتقل الامراض وتخف آثار العدوى .

الاعتدال فى مطالب الجثمان

يعلم كل انسان أن للجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة على شريطة الاعتدال فيها . فالغذاء وهو أول المقومات الجسمية قد ينقلب ضربة قاضية على الحياة اذا استعمل بافراط أو اذا لم تراع فيه القواعد الصحية كجمع المتعادلات من المواد الغذائية ولهذا فقد أجمع كل أطباء العالم على أن ملاك الصحة الانسانية هو الاعتدال فى الشهوات الجسمية . بهذه القاعدة الرئيسية جاء الدين الاسلامى فلم يحرم علينا شيئاً من الطيبات قط . بل أباح لنا الأكل والشرب من كل شىء صحى ولكن بشرط عدم الاسراف قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » « كلوا واشربوا ولاتسرفوا . »

ليست الزهادة فى الاسلام بالتأثم عن لذائذ المآكل ونضيج الفواكه وحرمان النفس من كل ماتشتهيه . كلا . فليست مقرراته مثل هذه الزهادة التى قد تنافى الحياة الاجتماعية وتهدم صروح المدنية . كلا . قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . »

فى هذه المناسبة نقول أن ديننا القويم كما لم يحرم التمتع بلذيذ المآكل كذلك لم يمنع التحلى بجميل الملابس . قال عليه الصلاة والسلام : « مامنع أحدكم أن وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته» ولم يكتف ديننا الحنيف بهذا بل يرغبنا فى التجمل والتزين إذا لم يقصد به ريبة بل قصد به ارضاء الخالق جل وعلا فى اظهار نعمته والتحدث بكرامته . قال عليه الصلاة والسلام : « من كان له شعر فليكرمه » أى يسرحه . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله يحب كل جيد الريح جيد الثياب . » وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة قال ماما لك ؟ قال من كل المال قد آتانى الله تعالى . فقال : «ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرىء نعمة أن ينظر الى أثرها عليه . »

الواجبات العائلية

للعائلة فى الجمعيات المتمدينة شأن خطير ومقام كبير فانها بالنسبة للجمعية الكبرى كالافراد بالنسبة للعائلات الصغرى فاذا صلحت الثانية صلحت الأولى والعكس بالعكس ولذلك ترى فلاسفة الأمم خصوصاً فى هذا القرن يوجهون أكبر هممهم الى اصلاح شؤونها وتعليم العامة كيفية اقامة أودها بالطرق العلمية المثلى . أما كنه هذه السعادة العائلية فينحصر فى أمرين رئيسيين وهما اصلاحها أدبياً ومادياً . وهذان الامران منوطان ولاشك برئيس العائلة ومطلوبان منه كأكبر واجب تقضى به شريعة المدنية الحقيقية . من هنا نلقى على عاتق أب العائلة واجبين يفرض عليه تأديتهما على حسب ماتحكم به سنة الحياة فنقول :

الواجب الأول

إصلاح حال الأسرة أدبياً

أداء هذا الواجب من الرجل يستلزم أمرين رئيسين أحدهما اعتباره امرأته شريكة له فى الشئون العائلية واعطاؤها حقها من التجلة والتكريم ثانيهما اعتبار نفسه قيما على أطفال سيكونون غدا أرباب أسر مثله وأعضاء لجمعية لها مقام فى الوجود تؤثر عليها تربية أفرادها ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وان هذه الجمعية قد ينشأ فيها فرد يرفع مجدها إلى عنان السماء وقد ينشأ فيها آخر يدهورها إلى حضيض الذل والشقاء . وإن مناط كل ذلك هو التربية فى سن الطفولية على المبادىء القويمة أو السقيمة ، وأن الاب أحد المسؤولين عن كل جريمة تصدر من أحد أفراد عائلته التى رباها فى حالة ما اذا كانت تلك الجريمة صادرة عن سوء ادارته فى التربية والتهذيب . بهذه الأمور جاءت شرعة المدنية الجديدة وعليها بنيت كل نظريات التربية العائلية .

نقول سبق الاسلام كافة العالمين إلى تقرير هذه المبادىء القويمة فقال من حيثية عدم اهانة النساء والحث على اكرامهن واحترامهن بلسان النبى عليه الصلاة والسلام : « ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم . » و « احملوا النساء على أهوائهن . » وفى قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . » دليل جلى على أن للمرأة شطرا عظيما من تربية أطفالها وتهذيبهم .

وأما من جهة انطباق الاسلام على ما جاء فى الأمر الثانى فيكفى فيها هذا الحديث الجامع : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته » بهذا النص الصريح صار الأب مسؤولا عن أعضاء عائلته فردا فردا ومفروضاً عليه

تعويدهم على مكارم الخلال وشرائف الخصال لكى لا يأخذ بجريرة الاهمال يوم يوجه إليه هذا المقال : « ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك » حديث قدسى

الواجب الثانى

إصلاح حال الأسرة مادياً

إن ما تكلمنا عليه من ضرورة إصلاح حالة الأسرة أدبياً يتعلق كل التعلق باصلاحها مادياً وذلك لأن أول ضرورة يشعر بها الانسان هى ضرورة حفظ جثمانه من التلاشى فاذا لم يسهل لديه الحصول على هذه الضرورة كما يجب لم يجد من نفسه قط باعثاً على السعى وراء شىء أدبى مطلقاً . وفى الواقع ماذا يكون أمر عائلة لاتجد من الغذاء الصحى مايقيم سلامة أجسامها ويحفظ على أفرادها قواهم العقلية والبدنية ولا من المسكن ما يقيهم عوادى الأمطار والأعصار ولا من الملبس ما يحفظهم من أعراض الجو المجتاحة ؟ أليس يؤول أمر عائلة مثل هذه إلى أخس دركات التوحش فتحسن الضرورات لأفرادها كثيراً من الدنايا النفسية والخسائس المزرية مع علمك بأن الاحتياج أبو المفاسد الأخلاقية ؟ ثم ماذا يفيد العائلة وجدانها غذاء جيداً ومسكناً وملبساً كافيين ولم يجد أبوها مالا كافياً ليقضى به ما يجب عليه من إصلاح حالة عقول أفرادها بارسالهم إلى المدارس وإيجاد المربين لهم فى كل ماتحتاج إليه الحياة المدنية ؟ أليس يتضح من كل هذه الملاحظات الحقة أن العائلة تحتاج إلى من يصرف عليها بسخاء وان قلة مال أبيها قد توقعها فى أسوإ حالات الشقاء ؟

نعم وبهذه القواعد الممدينة جاءت الشريعة الاسلامية السمحاء . قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله »

وقال عليه الصلاة والسلام « ما أنفقه الرجل فى بيته وأهله وولده وخدمه فهو له صدقة » وليس بعد هذا ترغيب فى الصرف على العائلة

ومما يدلك على ما للاسرة من الشأن الخطير وما للصرف عليها من التأثير الكبير فى نظر ديننا الحنيف ما قاله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف « ديناراً أنفقته فى سبيل الله وديناراً نفقته فى رقبة وديناراً تصدقت به على مسكين وديناراً أنفقته على أهلك اعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك »

نعم إن الاسلام لا يأمرنا بالتقشف المعروف عند العامة من حرمان النفس من كل شىء وجعل المعيشة على درجة من الشظف يعسر معها كل تهذيب خلق ويحرض النفوس يوما ما إلى كسر قيود الدين بالمرة كما حصل ذلك فى كثير من الأمم بل إنا نرى الدين الاسلامى يامرنا بالسعى فى إصلاح حالة معيشتنا جاعلا ذلك الاصلاح شطرا منه ، قال عليه الصلاة والسلام « إن من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك »

ولكن كيف يتأتى للرجل استصلاح معيشته إذا لم يكن ذا عمل يستغله أو مهنة يتكسب منها ؟ لاشك يجب علينا أن نتكلم على مقام المال والعمل فى الاسلام لنبطل حجة القائلين بأن الأديان تكره العمل للانسان فنقول والله المستعان :

مقام العمل والجد فى نظر الاسلام

إن أقل نظرة فى حالة الجمعيات المختلفة التى تتنازع البقاء الآن على سطح هذه الكرة تدنا دلالة محسوسة على أن أسبق هذه الأمم كلها فى مضمار الفوز بحاجيات السلطة والعلاء هى الأمة المركبة من أفراد ألفوا الكد والعمل وتركوا الجبن والكسل . وعلى هذا فيجب أن يحسب العمل من ضمن القواعد المهمة الممدينة لأفراد النوع البشرى والحافظة للأمم حياتها واستقلالها نعم هكذا يعتبره علماء العمران الآن ولأجله ينددون على الأديان زاعمين أنها تحبب الكسل للانسان وتقذف به إلى حضيض الهوان

نحن لا يهمنا فى هذا الكتاب إلا تبرىء الاسلام من هذه التهمة الفاضحة وإثبات أنه من أقوى العوامل فى الترغيب إلى الجد والعمل وأن قواعده من أشد القواعد تنفيرا عن الكسل

أجل الاسلام يرشدنا إلى الجد فى العمل للحياة الدنيا بقدر ما يرشدنا إلى الجد فى العمل للحياة الأخرى . قال عليه الصلاة والسلام : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) وقال عليه الصلاة والسلام: (أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا) فى هذين الحديثين رد على الذين توهموا أن صلاح الدنيا أمر يغضب الخالق جل شأنه ويستوجب سخطه عليهم فنبذوها نبذ النواة ومحضوا أنفسهم للتعبد والزهادة باضناء الأجسام وأنضاء العقول ولم يعلموا أن الدنيا دار حرب وهيجاء وأن القائم فيها يغلب القاعد ويستعبده فيحرمه كل حقوق الحياة وأن الطبيعة البشرية لا تلبث أن تقيم الحجة على مهملى أمرها فينقلب تعبدهم الموهوم فسقاً وتنسكهم إجراما . هذا دلنا عليه تاريخ الأقوام التى افطرت فى كراهة الأشياء الدنيوية

وفرطت فى حقوق ضروراتها الحيوية بسوء فهمها لنصوصها الدينية فلم تلبث أن لعبت بها أيدى الغوائل الطبيعية فارتكست إلى أسوأ حالة فى الفسوق لو اطلعت عليها لوليت منها فرارا ولملئت منهم رعباً

أما الديانة الاسلامية وهى ديانة آخر أدوار الانسانية فلم تقرر فى مبادئها أمثال تلك العبادة التى كان يقصد بها معالجة نفوس تلك الأمم الصخرية بل قررت أن كل عمل يكون مناسبا لسنن الحياة وملائماً للنواميس التى تعلى شأن العائلة البشرية وترفع أميال النفس عن حضيض البهيمية يجب أن يعد عبادة خالصة لله تعالى إذا قصد به وجهه الكريم لا إشباع نهمة الشيطان الرجيم

ولما كان كسب المال لاقامة أود الفرد والعائلة والجمعية والنوع الانسانى بأسره هو من الامور التى تساعد على الوصول الى الغاية التى حددها الله لهذا النوع قرر الاسلام أنه من أفضل ما عبد به الانسان ربه . قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الأعمال الكسب الحلال » وقال عليه الصلاة والسلام : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله . ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » ولاتحسب أن الاسلام يرغبنا فقط فى التكسب والعمل بل يفرضهما علينا فرضا ويؤاخذنا على تركهما مؤاخذتنا على اهمال أمر لازب . قال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم »

أما المال وما أدراك ما المال فهو فى نظر الاسلام من أكبر مقومات حياة الأمة ومن أعظم دعائم الارتقاء لها . قال عليه الصلاة والسلام : « سيأتى على أمتى زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه » هذا وقد كان بين أصحاب رسول الله من الأغنياء من يكفى مالهم لتجريد حملة عسكرية كما حصل من عثمان رضى الله عنه . وهل بعد مدح النبى صلى الله

عليه وسلم للمال الصالح فى قوله : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » يقال إن دين الاسلام ينافى الاثراء خصوصاً فى مثل هذا الزمان الذى أخبرنا عنه صلى الله عليه وسلم ؟ نعم نحن فى زمان يجب علينا فيه أن نظهر أوامر ديننا القويمة فى الجد والكسب حتى تنشط الأنفس من عقال خمولها وتنمحى تلك الظنون الفاسدة التى يهمس بها بعض من ينتحلون لأنفسهم وظيفة التهذيب والتعليم . فان العامة صارت الآن لا تسمع من إرشاد الدين إلا ما ينفرهم عن العمل ويبعدهم عن التكسب ويحبب إليهم القنوع والتقشف وهو إرشاد لم تراع فيه الحكمة النبوية من مداواة القلوب بأوفق علاجاتها

أما والعلم لو كان النبى صلى الله عليه وسلم أمر الناس بكراهة المال وترك العمل ولو بقدر جزء من مائة مما يفعله اليوم بعض المعلمين لما وجد فى الصحابة من يملك شروى نقير لأنهم رضوان الله عليهم كانوا أطوع الناس لسيد الأنام صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فانا نرى الأمر بخلاف ذلك على خط مستقيم . وهاهى أوامر الله تعالى فى كتابه الكريم حاثة على الكسب . وها هى السنة الشريفة داعية إليه بأكثر مما نرى فى كتب مدنية هذا العصر . قال الله تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » وقال عليه الصلاة والسلام : « نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة » وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه » وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال جهاد »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا هذا فانه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله . وإن كان يسعى على

أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فيغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله . وإن كان يسعى تكاثراً وتفاخراً فهو فى سبيل الشيطان » يظهر من هذا الحديث الشريف إن كسب المال تابع لنية الكاسب فان قصد به الغرض الحق كان مأجوراً وإن قصد به دنايا الامیال وخسائس الأعمال كان موزورا ولو كان وجه المكسب حلالا . قال عليه الصلاة والسلام : « من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر »

هذا هو القول الفصل فى هذا البحث بقى علينا هنا أن نتكلم قليلا على ما يستشهد به بعض المثبطين بقول ان الرزق مقسوم وان الكد قد لا يغنى فتيلا . أما نحن فأول المعتقدين بذلك . ولكنا لا نجترىء على اكتناه ما استأثر الله بعلمه ولا نحاول التنقيب عن عالم الغيب . فما يدرينى إن كدى هذا قد يخفق لعلم الله السابق ومالى ولاثارة هذه الأفكار التى بسوء فهمى لها تصدنى عن الشغل والاجتهاد وتلفتنى عن منهج الرشاد ؟ كلا . إن الشريعة الاسلامية جاءت بقوانين الحياة المشاهدة المحسوسة وفى تعاليمها مايدل الانسان على ذلك دلالة بينة .

قرر الاسلام أن الله سبحانه وتعالى يقسم رزقه بين عباده على حسب تفاوتهم فى الجد فمن كان جده أكثر كان حظه أوفر . والعكس بالعكس . وهذه هى القاعدة التى تبعث الناس إلى التسابق فى ميدان هذه الحياة باطمئنان على نيل مكافأة التعب . قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته »

يصرح الاسلام بلسان فصيح ان الاقدام والهمة فى كل أمرهما ملاك النجاح ومساك الفوز وان الخمول والطأة هما سبب الحرمان وأصل الفاقة . قال عليه الصلاة والسلام : « التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم »

ينادى الاسلام متبعيه قائلا إن للحياة قواعد ثابتة ونواميس معينة فمن عارضها عارض إرادة الله تعالى ومن وفق أعماله على نهجها نال بغيته وفاز بمطلبه وان الرزق والكسب خاضعان لهذه النواميس المقررة فمن خالفها حرم ومن لائمها رزق . وإن من أهم نواميس الكسب التبكير للحاجة والجد فيها قال عليه الصلاة والسلام : « من جد وجد ولكل مجتهد نصيب . الصبحة تمنع الرزق » وقال عمر بن الخطاب وهو أحد من يجب الاقتداء بهم : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » ومع كل هذا فانا نستطيع أن نسكت كل معارض ونفحم كل مجادل فى السعى على الكسب والجد وراء الأمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته »

هذا والاسلام يحبب الى متبعيه الذين يعسر عليهم الكسب أن يهاجروا الى حيث تسهل لهم المعيشة وتلين الحياه هرباً من الفقر الذى يقول عنه سيد الأنام : « كاد الفقر أن يكون كفرا » وتحامياً من أن يكون الانسان عالة على غيره . نعم الاسلام يبعث ذويه الى السعى فى طلب قوام الحياة ولو باقتحام الأسفار ومواصلة التسيار وخوض العباب وتجشم الأوصاب قال عليه الصلاة والسلام : « سافروا تصحوا وتغنموا »

على هذه السنن البينة سار أصحاب سيد الأنام . قال الامام أحمد : « وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم » هذا ومن يتدبر تاريخ الصحابة والتابعين ير مثالا لهمة واقدام وعزم يحق للنوع الانسانى أن يفتخر به حقيقة وأن يتوق للوصول الى بعضه . ماذا يرى ؟ يرى شرذمة قليلة كانت منزوية بين الشعاب والهضاب وهى من الفقر والفاقة بمكان لا يساويها فيه غيرها من الأمم قامت تنفض عن رأسها تراب الخمول والضعة اتئارا بأمثال ما قدمنا من الآيات الكريمة والأحاديث

الشريفة ولم تزل واضعة إياها نصب عينيها حتى بلغت فى مدة ثمانين سنة من الملك وسعة السلطان وامتداد دائرة النفوذ ما لم تبلغه دولة الرومان فى مدة ثمانمائة عام . بلغت هذا الملك كله وأخضعته لسيطرتها بطريقة تقرب أن تكون طوعاً لا كرهاً اذا قيست بما كان يستعمله الرومان من ضروب القسوة والوحشية واضطهاد المذاهب الدينية . طالع تاريخ القرن الأول من الاسلام تر بعينيك من عجائب الهمم مالا نستطيع أن نصفه هنا ولو بوجه عام مما لا تعد همم متمدنى هذا العصر بجانبها الا كسلا وجبناً

اذا كان الأمر هكذا فأين ذهبت الآن تلك الشهامة القلبية والهمة الاسلامية ثم كيف حل محلها العجز والخور حتى عن نيل ما كان شائعاً عند أطفال أسلافنا من مكارم الخلال وشرائف الخصال ؟

لم يكف الأمة الاسلامية ماهى فيه من الاستكانة حتى قامت بلسان بعض مرشديها تنسب تلك الحالة الى الاسلام زاعمة أن لها الأخرى ولغيرها الدنيا. كلا . إن للاسلام الدنيا والأخرى معاً : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » هذا حديث رب الاسلام : « ومن أصدق من الله حديثاً »

لا يحن المسلمون على دينهم بأكثر مما فعلوا ولينظروا إليه نظر عقل وروية ليروا أن أكثرهم الآن لا يتبعون إلا أهواءهم وأفكارهم ولا يمنعوا علماء المدنية من الالتفات إلى الاسلام بما يدسونه ظلماً إليه . وليعلموا أنه سيأتى يوم فى مستقبل قريب جدا يظهر الاسلام فى العالم برونق يشبه ما كان عليه فى زمن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » « انه كان وعده مفعولا »

الواجبات الاجتماعية

لا يخلو أى إنسان خصوصا فى العصور المتمدينة من أن يكون : (أولا) عضوا فى جمعية يحكم بقانونها ومشاطرا لأعضائها الآخرين فى المعتقد واللغة والمقتضيات الاجتماعية : (ثانيا) يكون مرتبطا بعلائق الوطنية والمحكومية مع قوم ينافونه فى المعتقدات والعادات : (ثالثا) تكون جمعيته التى يكون هو عضوا منها مسالمة لاتحاد المصالح لجمعيات أخرى تنافيها فى سائر الحيثيات أو فى أكثرها : (رابعاً) تكون جمعيته معادية لجمعية أخرى لاختلاف المسائل الحيوية بينهما . فالثلاث أحوال المتقدمة لا تخلوا منها أبدا جمعية من الجمعيات الكبيرة الحية وقد ينضاف إليها الحال الأخير حيناً من الأحيان أو أحيانا لكثيرة على حسب أهميتها فى الوجود فانا نرى بأعيننا أن أكثر الأمم مدنية وأهمية تجبرها دواعى الاستعمار إلى مواصلة الحروب كل آن حرصاً على مصالحها ولو مع قبائل صغيرة

مجرد النظر إلى هذا التقسيم يوجب الاعتراف بأنه تقسيم طبيعى لامناص منه لأنه لسان حال كل أمة متمدينة وغير متمدينة معاصرة لنا أو بعيدة العهد عنا . نقول الآن ان كل شريعة عادلة يجب أن تضع لكل من هذه الأقسام الأربعة واجبات تنيط رعاياها بملاحظتها أمام كل قسم منها بشرط أن تكون تلك الواجبات منطبقة على العدالة الحقة وموافقة لسنن هذا الوجود . وهذا أمر لم يتوصل الى اتمامه وتنفيذه على حسب نواميس العدل الحق الى هذه الساعة إلا الدين الاسلامى واليك التفصيل والبرهان :

الاسلام يقسم العالم فى نظره فى أربعة أقسام كما قدمنا ويحدد بالنسبة لكل قسم منها واجبات خاصة ويفرض على المسلمين مراعاتها وملاحظتها فالناس أمامة تنقسم : (أولا) الى مسلمين . (ثانيا) الى ذميين وهم أهل الكتاب

من اليهود والنصارى الذين يكونون فى ذمة الاسلام ومحكومين بقوانينه . (ثالثا) إلى معاهدين أو مسالمين لحكومة الاسلام . (رابعاً) إلى محاربين له . فلنتكلم الآن على الواجبات المفروض على المسلمين مراعاتها بالنسبة لكل قسم من هذه الأربعة الأقسام فنقول :

١

واجبات المسلمين فيما بينهم

يجب على المسلم بالنسبة لسائر المسلمين أن يلاحظ نحوهم كلما تستلزم الأخوة الحقة مثل المحبة والمساواة فى سائر الحقوق الطبيعية والسياسية . نعم يجب على المسلم أن يعتبر سائر أعضاء الجمعية اخوانا له بصرف النظر عن اختلاف شؤونهم وتباين أصولهم وألوانهم وأن لا يكون مناط التمايز بينهم إلا المزايا الشخصية والمكتسبات الذاتية مع جعل هذه الميزة موكولا الحكم فيها الى جانب الخالق جل شأنه وعدم غنائها عن صاحبها أمام القانون العادل .

أما التحاب بين المسلمين فهو شرط أولى من شرائط الايمان لقوله عليه الصلاة والسلام : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا » ونريد هنا أن ننبه أن هذه المحبة يجب أن تكون صادقة خالية من شوائب الرياء والدهان والا صارت نفاقاً ان لم ينكشف سره اليوم ففى الغد . ولهذا يجب السعى فى تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة كما يسعى لتطهير الايمان من شوائب المكفرات حتى يتم له الحصول عليها ولن يتم له ذلك الا بالتبصر فى مبلغ علاقاته مع بنى ملته وفى نتائج ركونه اليهم أو ابتعاده عنهم وفى عواقب

الاخلاص لهم أو مداراتهم بشرط أن يكون عالماً بحقيقة الحياة وتكاليفها ليرى رأى العين أن حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم : اذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه مسوقاً رغم أنفه الى إخلاص الحب لبنى ملته كما يكون مسوقاً للالتجاء الى حصن شامخ هرباً من سيل جارف

هذه المحبة التى يدعو إليها الاسلام هى مناط كل سعادة اجتماعية وملاك كل مدنية حقيقية . أدرس أحوال الأمم المتمدينة وتأمل جيدا فى دقائق أجزائها تر إن أكثر الأمم تماسكا بين آحادها وتلاصقا بين أفرادها هى أسبقهم إلى مضمار السعادة الحيوية وأولهم كلمة فى الأحوال العمومية . وترمثل هذه الأمة لا تعثر حتى تقوم ولا تهمد حتى تنشط فبينما تراها مرتبكة فى أمورها الخارجية ومهددة فى منابعها الحيوية مما يقرب اليك الجزم بقرب سقوطها ووشك انحلالها لا تلبث أن تراها قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك وصاحت بمن يناوئها من كل جانب فبددتهم بغير سلاح ورفعت فى سر هربهم الاقداح . هذا من أسرار التماسك الذى هو نتيجة المحبة وليس ما نراه فى الأمم اليوم إلا جزءاً يسيرا مما كان بين آبائنا الأول فرفعهم إلى أوج لم ينله للآن غيرهم وأوصلهم إلى مجد لم يتق إليه سواهم . تم لهم ذلك بعد التقاطع والتنابذ بفضل الديانة الاسلامية والعمل بأوامرها السماوية .

ولو أردنا أن ننقل هنا ما ورد فى ضرورة التحاب بين المسلمين للزمنا صفحات كثيرة جدا فنكتفى بايراد حديث شريف يدلنا على نقصان إسلام الذين يدعونه زورا حالة كونهم لا يهتمون إلا بأنفسهم وملاذهم صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على إخوانهم وهو : « ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم »

ولنورد هنا بعض حقائق تاريخية تدلنا على مبلغ المحبة الأخوية التى كانت موجودة بين أفراد الجمعية الاسلامية الأولى ليتعظ بها أبناء هذا

العصر وليعلموا أنهم بلغوا منها درجة لا تحصل بين أخوين شقيقين فى هذا الزمان ، قال حذيفة العدوى : « انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فأشار الى أن نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى الى أن أنطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر وقال آه فأشار هشام أنطلق به اليه فاذا هو قدمات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات ، أنظر الى هذه الارواح الطاهرة التى يخر بعضها على بعض حتى فى ساعة لا تستطيع الوالدة فيها أن تفتكر فى فلذة كبدها . أنظر إلى هذه النفوس الزكية التى تؤثر غيرها عليها فى ساعة هولها عظيم وألمها جسيم : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ثم تأمل فيما تستلزمه هذه المحبة من الأوصاف التى يفتخر بها هذا الانسان ويدعى استنادا عليها أنه أرفع من الحيوان . هل بعد هذا التماسك العجيب بين أفراد آبائنا الأول نستغرب سرعة امتلاكهم لأزمة هذه المعمورة مع قلة عددهم وعددهم ؟ هذه المحبة الحقة كانت شأن كل فرد من الأفراد سواء كان أميرا أو حقيرا أوغنياً أو فقيرا وما كان يصد ذا المقام السامى ما هو فيه من الرئاسة عن أداء واجبها بدون إخلال بوظيفته . اجتمع مرة قراء البصره إلى ابن عباس وهو عامل عليها (أى واليها) فقالوا : لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج ابنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده مايجهزها به فقام عبدالله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقاً وأخرج منه ست بدر فقال احملوها فحملوا فقال ابن عباس : « ما أنصفناه أعطيناه ما يشغلة عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا لكى نعينه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه وما بنا من الكبر مالا نخدم أولياء الله تعالى . ففعل وفعلوا . »

بسريان هذه المحبة الصحيحة فى الأمة الاسلامية الأولى تأيدت دعائم المساواة والحرية والعدالة فيها تأييداً لايبلغ شأوه ولايتحصل بغير الاسلام على جزء منه مما سنتكلم عليه تفصيلا فى فرصة أخرى .

هذا وقد ناط الدين الاسلامى بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعى فى أعلاء كلمة الأمة وتأييد مركزها وقرر أن أعظم عبادة يحبها الله تعالى هى السعى وراء تحقيق السعادة العامة . قال عليه الصلاة والسلام من حديث : « إن صبر أحدكم ساعة فى بعض مواطن الاسلام خير له من أن يعبد الله وحده أربعين عام » وقال عليه الصلاة والسلام : « صلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم .» وقال عليه الصلاة والسلام : « عدل يوم خير من عبادة ستين سنة ، من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره ، من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين ، من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . »

لاشك ان من يتأمل فيما سردناه هنا من الأحاديث الشريفة ير بعينيه أن مقصد الله جل وعلا من سن الاديان ليس هو التهالك فى العبادة الجسمية أو التفانى فى الزهادة المضنية بل قصده تهذيب الجمعيات البشرية وترقيتها إلى أوج مدنيتها بسيادة النواميس الممدينة على أفرادها . ألا ترى أنه يقول أن سماع كلمة حكمة خير من اعتكاف شهرين وأن إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصيام ؟

اللهم ارزق المسلمين تبصراً فى دينهم وهمة لمحو الخزعبلات من أذهانهم حتى يستطيعوا أن يروا الاسلام بالعين التى يجب أن يرى بها فان من يفهم ما نقلناه هنا من الأخبار النبوية يتحقق أن المسلمين الآن بتقاطعهم وتنابذهم وجهلهم قد نبذوا دينهم ظهرياً واستوجبوا سخط الخالق باتباعهم لأهوائهم. نعم أن هذه الأحاديث تدلنا على أن التقاطع والتباغض ينافى الاسلام بالمرة

بل هو مروق منه فان الله سبحانه وتعالى لم ينزل هذا الدين للافراد بل أنزله لعمرم الجمعية فان أكثر أوامره لايمكن العمل بها إلا بالالتئام والوئام لا بالتقاطع والانفصام. قال عليه الصلاة والسلام: «الاسلام إلى الجماعة أحوج من الجماعة إلى الاسلام.»

استطراد إلى الرق فى الاسلام

نحن لا نحب أن نختم هذا الفصل قبل أن نرى القارىء اللبيب أحكام الديانة الاسلامية بالنسبة للأرقاء فان فى ذكر هذه المسألة فوائد جليلة جداتجعلنا ندرك الفرق الهائل بين العدالة الالهية والعدالة البشرية فنقول: كلما رأيته من حقوق المسلم على المسلم ينطبق تماماً على الارقاء فهم بحكم الشرع اخوان مواليهم للحديث الشريف: «اخوانكم حولكم جعلهم الله تحت أيديكم» الخ وبناء على هذا فليس لأعظم عظيم حق فى التفاخر على عبد زنجى مسلم مهما كانت صفته.

ومما يجمل الاستشهاد به فى هذا الموضوع أن أباذر الغفارى رضى الله عنه كان يناقش عبدا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فغضب منه وقال له: يا ابن السوداء فما أتم هذه الكلمة حتى التفت إليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له: «طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح.» فوضع أبو ذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجى: «قم فطأ على خدى» وكان عبد الرحمن بن عوف إذا مشى لا يفترق عن عبيده لتشابه ألبستهم وتشاكل أزيائهم وعدم تقدمه عليهم: وروى أن الامام علياً رضى الله تعالى عنه ذهب مرة إلى السوق مع رقيقه فاشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمناً من الآخر فأعطى خادمه الأثمن

وأخذ لنفسه الآخر فقال له الرقيق : « أنت يا مولاى أحق بهذا الثوب » فقال له أمير المؤمنين : « كلا إنك أولى به منى لأنك شاب وأما أنا فقد هرمت » وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا » (يعنى بلالا الزنجى) . فانظر بأبيك كيف ساد حب المساواة فى أفكار الصحابة وهم ملوك العرب فى الجاهلية حتى صار مثل عمر لا ينظر إلى بلال الزنجى إلا من حيث خصائصه لا من حيث لونه ولا اصالته ! ولما احتضر عمر ولم يرد تعيين خلف له سمع يقول : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة (أى رقيقه سابقاً) حياً ما جعلتها (أى الخلافة) شورى »

فهل سمعت أيها القارى. فى تاريخ البشر أن حب المساواة والأخاء والحرية ساد فى أمة من أمم الأرض إلى هذه الدرجة ؟ إن هذه المساواة لم يحلم بها فيلسوف للآن حتى فى آخر القرن التاسع عشر ولا يتصور أحد من متشرعى هذا القرن إن من الممكن حدوث هذه المساواة ولا بين أكثر الأمم مدنية وعدلا فمن يلومنى الآن اذا قلت بأرفع صوت ان هذه المساواة هى آخر ما يمكن حدوثه بين البشر وأن كل خطوة تخطوها الأمم المرتقية فى سبيل تعميم هـذا المبدأ العظيم ليس هو الا تقرباً من هذا الاس الاسلامى ؟ ومن يكذبنى اذا قلت ان هذه المساواة الحقة لم تسطر للآن الا فى الكتب الاسلامية : اللهم اهد المسلمين للتمتع بجمال دينهم وألهمهم ذكرى مؤثل مجدهم

هنا يحتمل أن يسألنا سائل فيقول اذا كان الاسلام كما ذكرت قرر المساواة بين الأرقاء والأحرار الى هذه الدرجة وأظهر لهم من الشفقة والرحمة ما لم يحصل مثله فى تاريخ البشر بأسره حتى قرر قتل الحر بالعبد وعدم قتل العبد بالحر فلما ذا لم يقرر أبطال الرق ومحوه ؟ فهل كان أبطال الرق أشد صعوبة من أبطال عبادة الأوثان فنجيب إن الاسلام دين عام لم يأت إلا لأجل أن يتبع ويسار بحسب تعاليمه . ولا يصح ذلك إلا إذا كانت

أوامره ونواهيه ملائمة للطبيعة البشرية التى فطر الناس عليها ومناسبة للبواعث والأميال الانسانية التى لا مفر من التأثر بتأثيراتها ومشاكلة للنواميس السائدة على الجمعية الآدمية رغم أنفها وعلى غير علم من أفرادها ليرتقى النوع الانسانى تدريجاً من حالة البهيمية التى كان فيها إلى ذروة المدنية التى سيلاقيها. هذه النواميس أحس بوجودها فلاسفة العمران مثل (أوجست كنت) و (هجل) و (سبنسر) وغيرهم لأنهم رأوا النوع الانسانى متبعاً سلسلة فى الترقيات منتظمة الحلقات لا يمكن تخلفه عنها بوجه من الوجوه رغماً عن الفتن التى تعتريه والثورات والمظالم التى تنشب فيه. بل قالوا إن كل هذه العقبات التى تظهر للنظر البسيط عوائق وحوائل ما هى إلا فواعل تسوق إلى الامام وتخرج الانسان من الخلط الى النظام. فكل حكمة يقولها الفلاسفة مهما ظهوت للسامع المجرد سامية عالية فلا تتصور أنه يمكن العمل بها فى طبقات الأمم إلا إذا لوحظ معها سير نواميس التدرج البشرى وتطوره وهيهات أن يصل الحكماء إلى سير تلك النواميس بالدقة مهما كانوا مطلعين أو منقبين.

ان من يمعن نظره فى تطورات الأنسان وتدرجه فى الترقى الفكرى والمادى ير بطريقة محسوسة ان كل تطور دخل فيه شعب من الشعوب لم يحصل إلا فى الوقت الذى صار فيه الجسم العام للهيئة الاجتماعية متهيئا ومستعداً للدخول فيه. أن نواميس الحرية والمساواة لم تشرق على أفق بعض ممالك أوروبا اتفاقاً بقول فيلسوف أو اجابة لنصيحة حكيم. كلا. بل تقدم ذلك مناسبات ومقتضيات هيأت جسم الهيئة الاجتماعية إلى قبول شكل آخر غير الشكل الذى كانت به. وهذا بحث لو اطلقنا له عنان القلم لادانا الى تطويل ليس هنا موضعه.

بناء على هذه القواعد الاساسية الثابتة جاءت الديانة الاسلامية مراعية لسير تلك النواميس الطبيعية السائدة على الانسان مراعاة تدهش المتبصر وتحير المتدبر. فبينما نرى القوانين والقواعد الوضعية التى رقت المجتمعات حيناً من

الازمنة السابقة صارت الآن مما لاينطبق أصلا على الاحوال الراهنة نرى بعكس ذلك القواعد الاسلامية حافظة لشيبتها لم يعترها هرم ولم يعتورها سقم . نراها لم تزل ولن تزال كما كانت تنطبق على كل جمعية وتلائم كل استعداد وقابلية . ذلك لأنها هى نفسها تلك النواميس المرقية التى ظل يتحسسها علماء العمران من أول نشأة الانسان للآن .

نحن لانقدم كل هذه المقدمة لنبرهن للعالم أن الرق قاعدة من قواعد الاسلام يجب أن يوجد للآن . ولكنا نريد أن نعلل عدم إبطال الاسلام له فى أول نشأته بالبرهان الحسى والدليل المشاهد ولا نرى لأجل هذا دليلا أقوى من نقل قول العلامة لاروس فى دائرة معارفه . قال : « إن الحروب أفادت النوع البشرى كثيراً حتى أن أسوأ نتيجة من نتائجها وهى الاسترقاق لم تخل من فائدة كبرى ومزية عظمى . ولا يستغربن القارىء هذا الامر فان ترقى النوع البشرى قد يأتى أحياناً من طرق لا يظن مجيئه منها : فبالاسترقاق تحررت المرأة من ذل الأسر الذى كانت فيه عند بعلها فانها كانت عنده الا تفترق عن العجماوات والبهائم ولما جاء الرقيق رفع عن كاهلها كثيراً من المصاعب التى كانت منوطة بأدائها وأسماها نوعاً ما فى عين الرجل لأن دخول الغريب إلى العائلة يقضى على أفرادها باحترام بعضهم بعضاً أمامه . كل هذه المزايا أثرت على المرأة تأثيراً حسناً أهلها لأن ترتقى سلماً من التهذيب وبترقى المرأة تحسن شأن النوع البشرى وارتقى تبعاً لها إلى معارج الفلاح . أما الآن فلم يبق وجه للاسترقاق فان الأعمال قد خفت وطأتها عن عواهن البشر وجاءت الآلات الميكانيكية فأراحت الانسان كثيراً عما كان عليه فى الأزمنة السابقة . » انتهى باختصار .

نقول ولو كانت الديانة الاسلامية أبطلت الاسترقاق من منذ ثلاثة عشر قرناً لكانت خالفت سنة الوجود وجاءت بأمر يؤخر متبعيها عن الرقى والمدنية .

ولكن حاشاها من معارضة نواميس الحضارة فانها أقرته بعد أن حصرته فى دائرة محيطها الحكمة والعدالة وأسبغت على الآسر والمأسور نعماً لا يمكن تفضيل أحدهما على الآخر فيها فلم تبحه إلا فى الحروب الشرعية ضد الأمم الوحشية غير المسلمة بينما كانت الأمم الأخرى متبعة فى الاسترقاق طرقاً بربرية يأنفها الانسان ويستقبحها الحيوان . ثم لم يكف الاسلام حصره فى هذه الدائرة المحكمة بل جعل للارقاء حقوقاً ما كان يحلم بها أحرار الأمم الأخرى فى أكثر الممالك حضرة وتهذيباً . ولو كانت الأمم البربرية تعلم مقدار عناية المسلمين بأرقائهم وشفقتهم عليهم ومساواتهم إياهم لأنفسهم لقدموا فلذات أكبادهم عبيداً لهم ولرجوهم قبولهم كما يرجو الأب الشفوق ناظر مدرسة حكيمة ليقبل ابنه فى سلك تلامذته لكى يراه يوماً ما آدميا كاملا . وفى الواقع بينما كان آباء أرقاء المسلمين واخوانهم هائمين فى الفيافى والقفار كان هؤلاء فى الجمعية الاسلامية موضوع الاحترام والتجلة وشاغلين لأسمى المراكز الاجتماعية فى الادارة والحربية مثل بلال وسالم وسلمان وغيرهم . أما وحق المواساة والحرية لو علم ملوك السودان ان عمر بن الخطاب الذى كانت تهتز عروش الملوك عند ذكر اسمه قال لجلسائه ان أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعنى بلالا) لنزلوا عن عروشهم وقدموا أنفسهم أرقاء لهذه الجمعية التى تجعل عبيدها سادتها نظراً لمزاياهم الشخصية وخصائصهم الذاتية .

قلنا كل هذا ولكن هل الاسلام أقر الاسترقاق على وجه الاطراد ولم يشر بطرف خفى يفهمه اللبيب أنه سيكون يوماً ما شرا لا خيرا كما هو شأنه الآن ؟ نعم أشار إلى ذلك باشارة صريحة يفهمها كل انسان ولا سبيل لتأويلها فقال عليه الصلاة والسلام : « شر المال فى آخر الزمان المماليك . »

أنظر ببصيرتك إلى هذه المعجزات العلمية وروض فكرك فى الديانة الاسلامية وكذب ولو بقلبك الطغام الذين ألصقوا بها المشائن الوهمية والمعاير الخرافية فقالوا بأنها تعتبر الرقيق حيواناً وتحث على النخاسة وتندب اليها ومفتريات أخرى تليت فى المجامع وتشبع بها كل سامع . ولكن لابد للحقيقة أن تظهر وللباطل أن يدحر وللاسلام أن يعرف ويشهر « ولتعلمن نبأه بعد حين . »

٢

واجبات المسلمين بالنسبة للذميين

(أى لأهل الكتاب الذين هم فى ذمة المسلمين)

من يتدبر فى تاريخ الانسان من مبدئه الى يومنا هذا يتحقق أن محبته لدينه قد تغلبت فى فؤاده على كل محبة سواها فتراه يضحى نفسه وأهله وماله فى سبيل تأييده ونصره وهو قرير العين منشرح النفس هذه المحبة الدينية فهمها أكثر الاقوام على غير المراد منها وقذفوا بها الى الافراط الهائل حتى حببت اليهم اجتراح كل أنواع المظالم واقتراف أنكار الجرائم تحت حجة نصر الدين وكبح جماح الملحدين . حصل كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشرية وقوانين الهيئات الاجتماعية مما كان له أسوأ أثر فى تاريخ أمثال هذه الامم الحقود .

أما الاسلام وهو دين المدنية الحقيقية وملاك السعادة الانسانية فقد اختط لمتبعيه من هذه الحيثية خطة ليس فى مقدور مجموع الفلاسفة كافة أن يقرروا مثلها فى أذهان أممهم ولو بلغوا من السلطان على الأفكار أبعد غاية . كيف توصل الاسلام ياترى الى اقتلاع جذور الاحقاد الدينية من عقول متبعيه بدون أن يقابل شيئاً مامن محبته فى أنفسهم مع علمنا بان أكثر الامم محبة لدينها واحتفاظا به هى أشدها حقدا على مخالفيها ؟ انه توصل لذلك

بطريقة لم نسمع بها عن قادة المدنية ولم يقررها العالم العلمى إلا من منذ أمد قريب أى بعد أن وقف علماء الانسان والعمران على أسرار النفس وتأثير المدنية عليها . فبينما كانت رؤساء أكثر الأديان الأخرى يقولون لمتبعيهم أن الله قد أمر أن تكون العائلة البشرية كلها أمة واحدة متحدة الدين والأخلاق والعادات فاعملوا على تأييد هذا المبدأ ما استطعتم لذلك سبيلا فان اختلاف النوع البشرى يسخط الله لمعارضته لارادته الأزلية كان الله تعالى يوحى إلى نبيه لباب الحكمة قائلا له وللمؤمنين : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . »

وبينما كان رؤساء أكثر الأديان يأمرون متبعيهم باستعمال أشد الطرق الا كراهية فظاعة لحمل الناس على الدخول فى ملتهم ولو أدى ذلك إلى قتل الأبرياء وتيتيم الأبناء وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام كان الله تعالى ينزل على رسوله من سماء الرحمة آى الحكمة قائلا له وللمؤمنين : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . » و « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . »

كل هذه الآيات البينات غرست فى أفئدة المسلمين قاعدتين عظيمتين محتا من نفوس كل حقد دينى ولاشتا كل تعصب مذموم : القاعدة الأولى هى فهمهم من منطوق هذه الآيات ان الله سبحانه وتعالى قضى فى سابق علمه ضرورة افتراق العالم البشرى إلى جمعيات متخالفة المبادىء والغايات متباينة

المشارب والاعتقادات فيكون الساعى ضد هذا القضاء الالهى بغير ما رسم له عاصيا ربه مستحقاً سخطه وغضبه . القاعدة الثانية هى استنتاجهم من هذه الآيات نفسها ان تنكب الناس عن دين الله سببه تفاوت مداركهم فى ألفهم واختلافهم فى درجات العقل وأن لا سبيل إلى انتشار هذا الدين إلا بين من اسعدهم الجد بادراك سره وفهم المراد منه ولذلك أمرهم أن يسعوا إلى نشر الحقيقة الاسلامية من بابها وهو الدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذى لا تكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين . هاتان النظريتان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلانهم لا ينظرون فى اختلاف الأديان والمتدينين إلا أشياء مرادة لله تعالى سبق بها قضاؤه واستلزمتها حكمته ليتم الابداع الذى أراده وقدره لهذا النوع البشرى . ويزيدهم رسوخاً فى عقيدتهم هذه ما أثبته علماء العمران حديثاً من أن اختلاف النوع البشرى ضرورى لانماء المدنية واستمرارها ولازم لايراد هذا النوع موارد سعادته المرجوة .

بعد أن يقرر الاسلام فى أذهاننا هذه المبادىء الحكمية يأمرنا بالتخلق بأخلاق الله فى معاملة من يلوون كشحاً عن شريعته فانه سبحانه وتعالى قادر على أن يعاملهم بما لا يطيقونه ولكنه لا يفعل ذلك بل يعاملهم فى الحياة الدنيا أسوة غيرهم وربما ميزهم عن سواهم إذا كانوا أكثر أهلية منهم لنيل السعادة المادية : « ومن يرد حرث الدنيا نؤته منها . » نعم يأمرنا الاسلام أن نسدل ستارا كثيفاً على معتقدات مخالفينا فى الدين ويحثنا على معاملتهم بأنواع الرفق ومكارم الأخلاق . قال تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين . » وينهانا عن أذاهم ومماكرتهم ونصب المخاتل لمشارتهم . قال عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه فقد

خصمته يوم القيامة » . « من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار »

هذا ودينا الكريم يلزمنا بمساواتهم بأنفسنا أمام القانون ويزجرنا أشد الزجر على اهتضام حقوقهم وهو الأمر الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ أى أمة من أمم الأرض . أرنى أى أمة تأيدت فيها قواعد العدالة ورسخت فيها أصولها لدرجة تقتل أحد أعضائها عقوبة له على قتله أحد الأجانب عن دينها الرسمى حالة كونها فى أوج عظمتها وقادرة على أن تفعل ماأرادت من أنواع المظالم فى جانبهم ؟ جاء فى التاريخ الاسلامى أن يهودياً اشتكى عليا للامام عمر رضى الله عنهما — وعلى كما لا يخفى ابن عم النبى وزوج ابنته وأحد المرشحين لمركز الخلافة — فقال له قم يا أباالحسن فاجلس أمام خصمك ففعل ولكن مع تأثر لاح على وجهه فلما انتهت القضية سأله عمر قائلا : أكرهت ياعلى أن تجلس أمام خصمك ؟ - قال لا ولكنى تكدرت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا بقولك لى يا أبا الحسن (لأن الكنية تشير الى تعظيم) . قل لى بعيشك هل ورد فى تاريخ بنى آدم مثل هذه المساواة أمام القانون بين أحد عظماء أمة عظيمة يهز اسمها عروش الملوك والقياصرة وبين رجل من السوقة غريب عن ديانتها ؟ هذا هو تاريخ الأمم جمعاء يخبرنا أن المساواة لهذا الحد لم تقرر حتى بين الطبقات المختلفة فى الأمة الواحدة إلا من منذ زمن قريب جداً مما يحدو بنا إلى الجزم بأن هذه العدالة الحقة لم يعمل بها مطلقا إلا فى الأمة الاسلامية

كانت العدالة فى الأمم المتمدينة القديمة إسما بلاجسم وكانت العقوبات تتنوع وتختلف باختلاف الرتب والألقاب أماالشعب ذاته فكان تحت رحمة أهواء سادته الأعلين وقادته الغالين . أما المساواة التى يتبجح بها فلاسفة هذا العصر فهى بنت الثورة الفرنسية الهائلة التى يعت بها المهج بالمجان وصبغت فيها الأرض بالأرجوان . قال المسيو لاروس فى دائرة معارفه :

إن العقوبات فى روما عاصمة دولة الرومان كانت تختلف دائماً فى الجنايات المتشابهة على حسب اختلاف حالة المجرمين وحيثيتهم ، ثم ذكر تفصيل ذلك الجور وانتقل من قانون الرومان الى قانون الفرنسيين قبل الثورة الفرنساوية وألصق به مثل هذا الخلل فى قواعد العدالة ثم قال : « إن ثورة سنة ١٧٨٩ قذفت كل هذه الامتيازات بنفس الحركة التى محت الألقاب المختلفة التى كانت تابعة لاصالة الشخص أو للوراثة »

فقل لى بعيشك كيف لا يفتخر المسلمون بدينهم إذا تحققوا أن هذه المساواة التى يقول عنها الفلاسفة أنها سبب كل سعادة اجتماعية لم تقرر لأول مرة إلا فى الجمعية الاسلامية وأنها لم تقرر فقط بالنسبة للمسلمين فيما بينهم بل بين أعظم عظيم فيهم وبين أحقر حقير من غير ملتهم ؟ اللهم إنا نعتقد أن هذه العدالة ليست من موضوعات البشر ولم تكن فى مكنتهم مطلقاً قبل أربعة عشر قرناً بل هى عدالتك التى غمرت كل شىء وسادت كل شىء فمتعنا اللهم بالتدبر فى معجزات دينك إنك على كل شىء قدير

الاسلام يأمرنا بمجاملة الأجانب عن ديننا ومحاسنتهم ولكن لا من باب المواربة والمداهنة خوفا منهم أو طمعاً فيهم . كلا . بل عن صفاء نية وسلامة طوية حتى أنه ينهانا عن اغتياب أحدهم وذكره بما يكره كما ينهانا عن اغتياب أحدنا سواء بسواء . ولم يحل لنا بوجه من الوجوه نصب الحبائل لهم لمصادرة أشيائهم تحت ستار القانون المموه أو العدالة الوهمية كما فعله ويفعله كثير من الأمم بالنسبة للمخالفين لمعتقداتها

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم أسوة يجب أن نتأسى بها فى معاملة الأجانب عن ديننا ومخالفى معتقداتنا فانه عليه أشرف التحية والسلام كان يحضر ولائمهم ويغشى مجالسهم ويشيع جنائزهم ويعزيهم على مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات الاجتماعية التى لابد منها فى كل

جمعية محكومة بقانون واحد وشاغلة لحيز مشترك . روت السنة الكريمة أن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم كان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهنهم أمتعته الشريفة لا عجزا من أصحابه عن إقراضه فانه كان منهم المثرون وذوو الاملاك الشاسعة وكلهم مستعد لان يضحى نفسه ونفيسه فى سبيل مرضاة نبيه ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك تعليما للامة وإرشادا لها أن الاسلام أكبر وأجل من أن يأمر ذويه بقطع العلائق مع من يعيشون معهم فى مكان واحد بحجة أنهم مغايرون لهم فى المعتقد . وفى ذلك دلالة ناطقة على أن المسلم يستطيع أن يعيش بمفرده فى بلاد أجنبية عن دينه ولا يضره كون أهلها من غير ملته بل ويسمح له أن يتزوج منهم .

ليس فيما بين أيدينا من أسفار المدنية ما يرينا أن هناك فلسفة تهدى إلى إحترام النوع البشرى بمثل ما يهدى إليه الاسلام ويأمر به . تصفح تواريخ الأمم سابقها ولاحقها تر بعينيك من آثار قسوة الانسان على الانسان ما يحملك على اليأس من سيادة ناموس الاحترام النوعى بين أفراد البشر ويجعلك تثق بقول المتنبى :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

نعم يرينا التاريخ من آثار ظلم الانسان للانسان ماتقشعر له الابدان ويخجل منه الحيوان وإن كل هذه الفظائع كانت تحصل انتصارا للاديان . نحن لانتصور أن ديناً سماوياً يأمر ذويه بالفتك بمن يخالفهم واستئصال شأفتهم بأفظع الطرق ولكننا ننسب ذلك كله إلى سوء فهم متبعيها وإدخالهم الغش والتدليس فيها لمآربهم الشخصية وأمالهم البهيمية . قد بلغت تلك الوحشية فى الاكراه لدرجة كانوا يرمون بنى نوعهم طعمة للنار المتأججة أو فريسة للحيوانات الكاسرة أو يربطون رجليه فى ذيلى حصانين شديدين ويطلقونهما فى اتجاهين متخالفين أو يصبون على جلودهم القطران والقار الغاليين فى النار أو يعلقونهم

على نيران هادئة أياماً عديدة ولا يهتمون بانينهم ولا زفيرهم فتساقط لحومهم وتذوب شحومهم . كل ذلك كان يحصل على مرأى ومسمع من الناس فلا يجدون من أنفسهم فؤادا يشفق أو إحساساً يتأثر بل كانوا يمرون عليهم متفرجين متشفين .

قل لى بأبيك أين هذه الصدور المتأججة بالأحقاد الملتهبة بالاضغان التى تحمل ذويها على استئصال الأمم ومحو اسمها لمجرد رفضها ترك دينها من تلك الصدور الاسلامية الرحبة المملوءة حكمة ورحمة المفعمة مروءة وهمة ؟ تلك الصدور التى كانت تسمح لنواقيس الكنائس أن تدق بآزاء مآذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكناً أو تسبب غيظاً بينما كانت مقاليد مقادير العالم بأسره بين أيدى المسلمين بلامنازع ولاشريك فانهم كانوا يستطيعون ولاشك أن يجبروا على حرية أديان مخالفيهم مثل ما فعلت الرومان وغلت فيه

كان الجيش الاسلامى يدخل مكللا بالفخار فى أحشاء الممالك المخالفة له اعتقاداً فيجعل أكبر همه طمأنة الناس على دينهم وتهدئة روعهم على حفظ معابدهم متعهداً لهم بحمايتهم والدفاع على ذمارهم ويطلق لهم تمام الحرية فى إجراء كل طقوسهم الدينية وعوائدهم الملية : كل ذلك عملا بتعاليم الاسلام وجرياً على سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام

هل بعد هذا يستطيع مكابر أن ينكر على المسلمين احترامهم للنوع البشرى أكثر من كل أمة سواهم أو يجحد أن دينهم أعلى وأسمى من أن يبنى على اختلاف المعتقدات الاباحة المطلقة فى سبيل الفتك والقسوة ؟ الاسلام لا يحلل الجور لمتبعيه حتى مع ألد أعدائهم فى ساحة الوغى وميدان الهيجاء قال تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

الاسلام لا يأمر الرجل بقطيعة أهله لمخالفة دينه لدينهم بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف وعمل كل الطرق فى أداء واجباته نحوهم قال تعالى :

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . »

روى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : أتتنى أمى راغبة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فسألته أأصلها قال نعم قال ابن عتيبة فأنزل الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين » الآية وأرسل عمر على عهد رسول الله صلى عليه وسلم حلة إلى أخيه هدية وهو مشرك

الاسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للاديان وهو مريد به التفريق بين الأهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الانسانى بأكمله بل أن الرجل ليستطيع أن يكون مسلماً وهو فى عائلة كل أفرادها مخالفون له فى المعتقد والمذهب ولا تحمله تلك المخالفة على عمل شىء ضدهم على الاطلاق بل يلزمه الدين بعمل واجباته بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم ما داموا مراعين نحوه شرائط المحبة وصدق النية

الاسلام لا يكلفنا بجميل الخصال ومحاسن الخلال لنفعلها فيما بيننا فقط بل يكلفنا بها لنقوم بها نحو العالم أجمع طارحين على اختلاف الديانات غطاء كثيفاً وحجابا غليظا . قال عليه الصلاة والسلام : « خاب عبد وخسر لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر » وقال : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » بهذه الأوامر الآلهية عمل المسلمون ويعملون ولو اتهمهم بضد ذلك المضلون .

كان عمر جالساً بين أصحابه فمر به رجل من أهل الذمة يتسول فنظر إلى مجالسيه وقال لهم : أنا لم ننصف الرجل أيصح أن نأخذ منه الجزية وهو شاب ونتركه يتسول وهو شيخ ؟ كلا . وأمر له براتب يصرف له من بيت مال المسلمين . فتدبر رحمك الله فى هذه النفوس الكريمة والذرائع الرحبة واعجب

كيف تمكن الاسلام بنور الله أن يؤثر على أفئدة أولئك العرب الذين كان يضرب المثل بجاهليتهم حتى جعلهم غرة فى وجه المكارم وآية فى عدم الحقد الدينى فى زمان كانت فيه هذه الأميال الشريفة مفقودة من بين النوع البشرى بأسره .

أما حسن معاشرة المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الاخرى فما لم يرد مثله فى تاريخ البشر قاطبة . نعم بلغت منهم حسن المعاشرة لمخالفيهم فى المعتقد مبلغاً لاتراه يحصل الآن ولا بين أخوين شقيقين ربيا فى أسرة واحدة وتفرعا من نبعة مشتركة . قال مجاهد : « كنت عند عبد الله ابن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال ياغلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى حتى قال ذلك مراراً فقال له كم تقول هذا ؟ فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه » قارن رحمك الله بين هذه المعاملة المدهشة وبين ماتسمعه فى البلاد المتمدينة من الجمعيات السرية والجهرية التى تتألف يومياً ولاهم لها الا اضطهاد اليهود واذلالهم . هل بعد ما بيناه فى هذا الفصل يستطيع كلاب الفتنة وذئابها أن يسمعوا المسلمين بتهمة الحقد الدينى (التعصب) واضمار الشر لكل من ليس من ملتهم ؟ انا نسمع كل يوم فى بلاد المدنية بأمر نازلة من آثار الحقد الدينى مايجعلنا نخجل من سماعها ، فهل سمعت يوماً انه قامت فى بلاد اسلامية جمعية جعلت همها معاكسة طائفة من الطوائف التى تدين بغير الاسلام ؟ اللهم لا

نحن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نثبت للقارىء أن الحقد الدينى الذى برهنا على تجرد الاسلام والمسلمين منه منذ ثلاثة عشر قرناً الى الآن كان يدين سائر الامم وداءها الذى أعيا أطباءها وانه لم يتوصل الى تخفيفه — ولا أقول ملاشاته — الا منذ قرن تقريباً ولا نرى لذلك سبيلا أحسن من نقل ماقاله الفيلسوف الطائر الصيت جون سيمون فى كتابه حرية الاعتقاد

قال : « ان حرية الاديان ليست ببعيدة العهد فان تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحقد الدينى (التعصب) هذا الحقد الدينى الذى هو أقدم من الحرية يتصاعد الى أبعد عصر فى التاريخ» ثم عدد آثار التعصب المذموم فى العالم كله من القرون الأولى الى الاعصار الوسطى ثم قال : « وأخيرا توصلت الروح الفلسفية الى تقرير حرية الاديان فى ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ ولكن لم تحقق هذه الأمنية العادلة الا فى سنة ١٧٩١ وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم . ومع هذا كله فان الثورة الفرنساوية على ما كانت عليه من خلوها من حسن الادارة فى الاعمال لم تتمكن من تأسيس الحرية الدينية . »

أما يحق لنا نحن بعد هذا كله أن نرفع صوتنا قائلين : ليحى الاسلام دين المدنية والسلام ؟ »

٣

واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهديهم

ان حفظ العهد واجب من أكبر الواجبات الاسلامية فلا يبيح الاسلام نقضه لأى سبب من الاسباب الا اذا كان المعاهدون هم البادئون بنقضه كما انه لافرق لدينا فى حفظ العهد بين أن يكون معاهدونا من أهل الكتاب أو من المشركين . قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود » وقال الله تعالى بعد تعداده لصفات المؤمن : « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » هذا ومن يتصفح تاريخ الاسلام من أول نشأته للآن يتحقق أن المسلمين رجال يضرب بهم المثل فى حفظ العهد وصدق النية فى القصد وفى تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة تليق أن توضع نصب أعين قادة الامم فى طهارة الذمم وعلو الهمم . ومن يتصفح القرآن الكريم ير فيه من الاوامر

لحفظ العهد والنهى عن نقضه مايجعله يتأكد أن الشريعة المحمدية لاتضارعها شريعة أخرى من حيثية مطابقتها لقواعد العدالة وشدة يقظتها فى عدم تعدى حدودها . ألا ترى ان الدين فى أثناء تحريضه لعصابته الضعيفة بالثبات أمام عدوهم الشديد البطش لم يغفل عن تذكير أبنائه ـ حتى فى هذه الساعات الشديدة المخاوف ـ بمعاهديهم لكيلا يلحقوا بهم أقل اذى ؟ قال الله تعالى : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين »

أما معاملة المسلمين لافراد الامم المعاهدة لهم فلا تفترق عن معاملتهم لأهل الكتاب الذين تقدم الكلام عليهم فى الفصل السابق وقد أوصى عليهم نبينا صلى الله عليه وسلم فقال : « أمرنى ربى أن لاأظلم معاهداً ولاغيره » وقال عليه الصلاة والسلام : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة » « من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برىء من القاتل ولوكان المقتول كافرا » هذا ومن يتصفح تاريخ الامم المتمدينة فى القرون السابقة يقشعر جلده من سلوكهم من الامم الضعيفة فانهم ما كانوا يعرفون للحق قانوناً غير القوة ولا للفضيلة ناموسا غير القوة . فمن كان ينكده الحظ بأن يصير ضعيفاً كان يقع تحت ذل الأسر والعبودية ويقيد بالسلاسل والاغلال ليكون آلة لمواليه فى الحراثة أو الصناعة أو غير ذلك

٤

واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربيهم

من المجمع عليه تاريخياً أن النبى صلى الله عليه وسلم قام بأمر الدعوة الاسلامية بمفرده فى مكة المكرمة فتبعه افراد قليلون منهم نساء وأطفال

وشيوخ فاضطهد هو ومن أسلم معه اضطهاداً شديداً وعذبوا عذاباً أليماً مما لايمكن أن يحتمله الا من يرى الهلاك أيسر عليه من الارتداد عن حقيقته مثل ماحصل لخباب رضى الله عنه حين أسر وعذب بالنار ولما عرضوه للقتل استأذن فى صلاة ركعتين فصلاهما ثم قال لولا أن تظنوا أن مابى جزع لأطلتهما . اللهم احصهم عددا . وأقتلهم بددا ، ولاتبق منهم أحدا ، ثم انبرى منشدا :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

هذا ما حصل لأحدهم وما كان يحصل لغيره أشد وأفظع مما يطلب تفصيله من كتب التاريخ . فاستمرت هذه المصائب على هؤلاء المسلمين مدة ثلاث عشرة سنة . ثم أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة أولا ثم إلى المدينة ثانياً فنموا واشتد ساعدهم فرمتهم العرب كلهم عن قوس فظلوا فى المدينة فى أشد الخوف والوجل حتى كانوا يقولون : « ترى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا من الله عز وجل . » فأنزل الله عليهم هذه الآية طمأنة لهم وتسكيناً لروعهم . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » ثم لما تجمهرت عليهم القبائل وأتتهم متحمسة حاقدة بقصد إبادتهم واصطلامهم أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويثبتوا واعدا إياهم بالنصر والتمكين والفتح المبين فقال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . » فكان سيد

الأنام عليه الصلاة والسلام ومن معه من النفر القليل يلاقون بصدورهم تلك الجيوش الهائلة والكتائب المتراكمة المتراكبة وهم مطمئنون متيقنون أن الله تعالى لابد أن يحقق وعده لهم ويمدهم حيث قال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . » « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . » « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . » « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . » فاستمرت نيران الحروب بين طائفة المؤمنين القليلة العدد والعدد وبين سائر قبائل العرب مدة مديدة امتحن الله فى أثنائها قلوب عباده واختبر صبرهم وطاعتهم لأوامره على كل ما يمكن تصوره من المصائب حتى تنقت قلوبهم من كل شائبة وصار إيمانهم أنقى من النقاء وأصفى من الصفاء ثم مكن الله لهم فى الأرض وجعل كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى وصاروا قادرين على إبادة أضدادهم عن بكرة أبيهم . ولكن كيف يتصور أن يحصل ذلك من دين الاسلام دين المدنية والسلام ؟ حاشا بل كان الله تعالى يأمرهم بمبرتهم والعدل معهم قال جل جلاله : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . »

ولما مكن الله للمؤمنين ووطد أمرهم وأراد أن يظفرهم على الذين ظلموهم فى أول نشأتهم وأذاقوهم أنواع الآلام أمرهم أن لا يتبعوا دواعى الانتقام والتشفى لكيلا يخرجوا عن حدود العدل والحكمة وأراهم أن ذلك يعد عدواناً وظلماً فقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب . »

لم تأت هذه الأوامر بالنسبة للمتهورين فقط بل يجب مراعاة الاعتدال والشرف والرحمة حتى فى أثناء إشتعال نيران القتال قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . » ومن الاعتداء عند المسلمين سب أعدائهم ولعنهم . لما قتل المشركون عم النبى صلى الله عليه وسلم حمزة ومثلوا به وأخرجوا كبده بكى عليه بكاء شديدا وحزن حزناً لا مزيد عليه ودعا عليهم فأنزل الله تعالى : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون . » فكف عن الدعاء عليهم وقال لئن ظفرت بهم لأمثلن بأربعين منهم فأنزل الله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » فقال عليه الصلاة والسلام « أصبر وأحتسب . »

أما من جهة أسرى الحروب فان النبى صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بمراعاتهم وإكرامهم وعدم إساءتهم فقال : « استوصوا بالأسارى خيرا . » فصار أصحابه ائتمارا بهذا الحديث يكرمون أسراهم لدرجة أنهم كانوا يعطونهم خبزهم ليأكلوه ويكتفون هم بالتمر .

تدبر رحمك الله ما قدمناه لك فى هذا الفصل تر التفاضل الواضح بين هذه العدالة الالهية وبين ما تقرأه من سيرة الرومان وغيرهم من الأمم التى كانت جاعلة نفسها طاغوناً مجتاحاً للنوع البشرى فهامت فيه قتلا وسفكا وتسخيراً واستعباداً . واعلم أن كل ما تراه من آثار العدالة فى حروب هذا العصر ليس هو إلا تقرباً لهذه العدالة الاسلامية التى هى نموذج لمنتهى ما يمكن حصوله فى النوع البشرى . فلندع الجمعيات الساعية لتأييد السلم فى العالم وابطال الحرب تعمل عملها العظيم وتجد فيه فان الاسلام لا يهزأ بعملها هذا بل ينشطها فيه حتى اذا تم لها ما تؤمله بمساعدة الملوك والقياصرة ودعمته على دعائم الاخلاص وصدق الطوية مد كل مسلم إليها يده تالياً قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . »

نظرة

على الاسلام والمسلمين

قد بسطنا فى فصولنا المتقدمة كل أصول المدنية التى انبنى عليها كل مانراه من الترقى فى العالم المتمدين وأقمنا الأدلة الحسية على أنها بعض قواعد الاسلام حتى يتخيل للرائى أنها مستمدة منه ومأخوذة عنه ، وبرهنا ضمن ذلك على أن هذه الأسس الاسلامية لايحتمل أن يعتريها التبديل أو يعدو عليها التحويل لانها ملائمة لسنن الوجود ومطابقة لنواميس الحياة البشرية المثبتة بالحس مطابقة لايمكن نكرانها بوجه من الوجوه وقلنا ان كل ترق يحصل فى العالم وكل خطوة تخطوها العقول فى سبيل الكمال ليس هو إلا تقرباً إلى الاسلام وإنه سينتهى الأمر يوماً ما باجماع عقلاء البشر كافة على اعتبار الاسلام ناموساً عاماً للسعادتين وضامناً لراحة الحياتين .

نعم ! الاسلام هو الدين العام الباقى بقاء الانام والقانون الذى تلسته الفلاسفة الاعلام منذ ألوف من الاعوام . اهتم عقلاء الأمم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادى والنفس المعنوية ويوفق بين مطالبهما على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحقة بين أميالهما بطريقة تمنع تسلط أحدهما على الآخر اهتموا بهذا الأمر وتحسسوه من كل مظانه لعلمهم بأن الانسان المركب من نفس وجسم اذا لم يراع تمام الاعتدال فى مطالب هذين الجوهرين وقع فى الافراط فى مطالب أحدهما ومتى حصل له ذلك أخل بوظيفة الحياة ودفع نفسه فى تيار شديد القوى لايسرع به الاليصدمه صدمة تذهله عن نفسه فيصبح جائحة على بنى نوعه أو عضوا مشلولا فيهم . رأى هؤلاء العقلاء وليس بعد الحس دليل أسطع ولا

بعد حوادث التاريخ برهان أقطع على أن كل المذاهب التى لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الأمم التى تسود عليها إلى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلاقل المزعجة آماداً مستطيلة حتى يسود أحد أولئك القسمين على الآخر ومتى امتلك حريته المطلقة ولم يجد أمامه مقاوماً يخفف من سيره تطرف واستهدف لكل ما يستلزمه الافراط فى أحد نوعى مطالب الأنسان ولم يلبث أن تصيح به الطبيعة البشرية صيحة ترده مدبراً على عقبه فيصبح كأن لم يغن بالأمس. ومن يتصفح تاريخ الأمم ير بعينيه هذه الحقائق ساطعة واضحة لا تعوزه إلى بحث طويل

أما نحن فأول من يوافق هؤلاء الحكماء على أفكارهم من ضرورة تلمس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقاً عادلا ويربط صلاح أحدهما بصلاح الآخر كما هو شأنهما طبيعة. وقد اثبتنا فى فصولنا المتقدمة أن النفس عرضة للأمراض المختلفة وللشفاء منها كما هى حالة الجسم سواء بسواء. ولما كان الرجل لا يستطيع أن يحمى جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة إلا بتعلمه لقانون الصحة الجسمية فكذلك يجب أن يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسية ليستطيع أن يمنع نفسه من غوائل الأمراض المعنوية القتالة. ولما كان هذان الجوهران المركبان للأنسان موضوعين بطريقة بها يتأثر أحدهما بمرض الآخر وجب أن يكون ذانك القانونان اللذان يبحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين لكيلا يكون فى السير على أحدهما اضرار بالآخر. هذه الحقيقة أصبحت فى هذا القرن خصوصاً من البداهة التى لا يمترى فيها لأن حالة الوجود كله شاهدة بصحتها. وهذه الحقيقة نفسها هى التى بعثت خاصة علماء أوربا إلى تأليف ديانة سموها الديانة

الطبيعية أسسوا بنيانها على دعائم البداهة العلمية والحقائق الفلسفية ونحن نستحسن أن نأتى فى هذه العجالة على أهم قواعدها مترجمة من كتاب (الابحاث الأخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو . قال : «قواعد الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الأنسانى . والاعتقاد بوجود روح فى جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة فى هذا الجسم المادى أمداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء . كما يمكنها أن تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس ووضع الحرية الأخلاقية التى هى ينبوع واصل كل الحريات الأخرى تحت سيطرة الاعتدال الكلى . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيق وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيق وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم . والتهيء لساعة الموت بالزهادة وأخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى النوع الانسانى فى مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة . »

لاشك أن كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الاسلامية وفى قواعد هذه الديانة الطبيعية يرى بعينيه أن الاسلام هو تلك الامنية التى تحسسها الفلاسفة وتلمسوها فى سائر أبحاثهم العلمية من قديم الزمان إلى الآن ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التى يخطوها النوع البشرى بين كل هذه القلائل الاجتماعية فى سبيل الرقى والتدرج متقرباً كل يوم من قواعد الدين الاسلامى على غير علم من أفراده ويتأكد أن الاسلام هو الغاية القصوى التى وضعها الخالق جل شأنه أمام هذا النوع ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها ماتشاهد آثاره وأفاعيله فى تاريخ الانسان مما هو مصداق لقول الله

تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . »

من هنا أيضاً يدرك الممعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذى حصل فى الأمة العربية فجعلها خير أمة أخرجت للناس بعد أن كانت من الوحشية بمكان ليس دونه مكان .

فلنبحث فى حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعية التى انتهكت قواهم منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء . نعم بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن بغاية الأسف رأينا أكثرهم أغضى كل الأغضاء عن ذات العلة وأخذ يجهد نفسه فى مداواة الأعراض المرضية وهذا جهد لايبلغ صاحبه أمنيته مادام سبب المرض لم يزل ينتج أفاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعى فى جسم الهيئة الاجتماعية الاسلامية . أما نحن فلا نريد أن نسلك هذا المسلك الذى لم ينتج فائدة ما بل نريد أن نثقب أغلفة أدواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصل بعون الله إلى معرفة ذات العلة . ومتى عرفناها سهل علينا ولاشك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه فنقول :

لايخفى على كل إنسان أن مدنية المسلمين التى تكونت جرثومتها فى جزيرة العرب فتفرعت أفنانها فى مدة قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولى غير الديانة الاسلامية . ويتمكن كل انسان باستقرائه التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على أن هذه المدنية كانت أسرع المدنيات سيراً وأكثرها لألاء وأوسعها بقاعا وأعجبها منبتا وأقواها امتلاكا لأزمة ذويها وتأثيراً على أذهان متبعيها وأنها كانت جامعة لناموسى كل السعادات الاجتماعية وهما العلم والعمل .

هذه أمور يهديها النظر المجرد فى تاريخ المسلمين فى مبدأ أمرهم ولكننا الآن لو أجلنا نظرنا جولة صغيرة على جميع الامم الاسلامية فلا نرى

إلا عكس ما كان عليه أباؤنا الاول نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا القهقرى وآخذة فى محو وجودنا شيأ فشيأمع أن كل العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدعى الاسلام وتحافظ عليه محافظة الانسان على فؤاده . فهل ذلك مصداق لقول متطرفى فلاسفة هذا العصر من أن شأن الديانات عموما تقييد الانسان عن الرقى ومنع النفوس عن التدرج فى معارج الكمال ؟ كلا . فان أقل نظرة فى حالة العرب فى جهالتهم ووحشيتهم قبل الاسلام ثم فى مدنيتهم وسرعه رقيهم بعده مما لم يعهد له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة . إذن هل هذا الاثر مصداق لقول معتدليهم من أن كل قاعدة مهما كانت ممدينة للامم ومرقية لشأنها فى عصر من العصور لم تخل من أن تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقى فى المستقبل لمضادتها لسنة الأزمنة والمناسبات ! كلا . فانا درسنا أهم نواميس الاسلام فى كتابنا هذا درسا مدققا فلم نره إلا مطابقا لقوانين الحياة البشرية ملائما لقواعدها ورأينا رأى العين أنه لم يضع للرقى حداً تقف النفوس عنده بل سن قواعد عامة وكسر كل قيد وضعه المشرعون الاول جهلا منهم بسنن الحياة المستقبلة وأطلق كل خصائص النفس من أغلالها الأولى وترك إليها أعنتها ولكن بعد أن نقلها إلى جادة الاعتدال والحكمة ونحن لا ننتظر أن يأتى زمان يقال فيه أن الاعتدال مذموم وأن المحمود هو الافراط أو التفريط . إذن ما هو السبب فى تأخر المسلمين حتى عن مساواة آبائهم فى عشر فضائلهم ؟ أما نحن فلا نجد السبب إلا فى هذا الامر المهم ألا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه واليك التفصيل :

إنا قد برهنا فى فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأحوال الجمعية الاسلامية الأولى أن غرض الاسلام الأول هو ترقية شأن الانسان ماديا وأدبياً على حسب ناموس الرقى العام

الذى استدل عليه باستقراء أحوال الانسان وتطوراته ، وانه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لاداء وظيفتها الا أشار اليها ونبه بالتعويل عليها وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلا فى الاذهان ولا للريب مجالا فى الوجدان . ولكن بالقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الاعظم لايفهم من الاسلام الا انه محض قواعد للعبادة ومجرد دعوات يقصد بها قضاء الحاجات فى الدنيا أو نيل الدرجات العلى فى الآخرة ولا يعلمون منه إلا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج وأما ما فيه من ايات الحكمة ومعجزات الفضائل التى بعثت الامة العربية من جدث خمالتها الاولى إلى ذروة جلالتها التالية فقد ضربوا عنها صفحاً مع أنها هى لباب الدين ونبذة الاسلام والغرض الوحيد من انزاله وتشريعه

جاء الاسلام موفقاً بين مطالب النفوس من المقاوم المعنوية والمنازل الأخلاقية وبين مطالب الجثمان من الأشياء المادية ليكون متبعه إنساناً كاملا عادلا بين مطالب طبيعتيه موفقاً بين أميال جوهريه فيقول الله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه . » ولكن لوى سوادنا الأعظم الكشح عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا أهواء الأمم السابقة فى فهم الدين وزعموا أنه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم فى ذلك أفكار ما أنزل الله بها من سلطان . يقول الله تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « إن من فقه الرجل إستصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك . » فأسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان وزعموا من تلقاء أنفسهم أن الدين هو عبارة عن التفرغ الكلى من علائق الدنيا

والانفراد المطلق من كل الأميال البدنية . فعلوا كل هذا ولم يعلموا أنه السرطان الذى أباد الأمم السابقة والطاعون الذى استأصل النحل المتقدمة . ولكن كيف يتأتى لهم أن يعلموا ذلك وهم منزوون فى محالهم جاعلين سدا منيعاً بينهم وبين هذه الآية ؟ « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . »

هذا الفهم السيء فى معنى الدين ادانا إلى تغيير معنى التقوى عما كانت عليه فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن أصحابه الكرام . فالتقى على حسب فهم دهمائنا الآن هو الرجل الذى خيم عليه الخمول والكسل وترك الجد والعمل ولم يترك له فى الدنيا أقل أمل . وكان على تمام الجهل بأحوال الأواخر والأول . والذى ان مشى كان على مهل . وان جلس كان فى عنقه ميل وان دعى إلى مهمة أورثها الخلل والزلل . هذه هى صفة التقى عند أكثرنا الآن وهو كما يراه كل متأمل فى أحوال سلفنا الصالح مغاير تمام المغايرة لما كانوا عليه مناقض له على خط مستقيم . كيف لا وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم أئمة التقوى وأمثلة الكمال الدينى كانوا كما يعلمه الخاص والعام ويرويه التاريخ للأنام رجال الجد والعمل وأهل الشيم والهمم وقادة العلاء والعظم لم يتركوا مظنة للفخار إلا وردوها ولا راية للمجد إلا رفعوها حتى أعلوا كلمة الحق على الأباطيل وقوضوا دعائم الجور والأضاليل مما يدل مطالع سيرتهم على همة لو صادمت الجبال لسحقتها سحقاً أو لحظت الثريا لحقتها محقاً . همة يقف أمامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد همتهم بجانبها إلا عجزا واقتصارا . همة عرجت بنفوسهم إلى سموات الرفعة عن دنايا الأمور وسفاسف الأعمال وعلت بهم عن التدنى للفجور وخسائس الأميال . همة كما ذادتهم عن الرتوع فى حمأة الشهوات بعثتهم إلى منازل

الكمالات . وكما ردتهم عن وهاد الزلات حثتهم إلى تسنم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة فى صورة آدميين ونورا ساطعاً ولو كان غلافه من طين : هذه هى التقوى التى رسمها الاسلام لمتبعيه وخطها لذويه لا ما نراه الآن من التقوى التى لو طبقت على الاسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحظور .

هذا الفهم السيء فى التقوى الذى أوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الاسلام جعلنا نقسم الناس إلى قسمين : قسم سميناه أهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدوية أو بأبحاثهم الفكرية . وقسم سميناه أهل الأخرى وهم الذين تركوا الدنيا جانبا ووقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والمشى فى الطرقات خلف الطبول وتحت الاعلام . وانبنى على هذا التقسيم الوهمى الذى تأصلت جذوره فى العالم الاسلامى منذ قرون عديدة أن وقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوم التى عليها مدار السعادة المادية كما قصر أهل الآخرة أنفسهم على الاشتغال بالعلوم العبادية فصار القسم الأول بهذا الاعتبار جاهلا للدين جهلا يوقعه فى الشكوك والشبهات وصار القسم الثانى جاهلا للدنيا وأمورها جهلا أداه إلى العماية عن سياسة أحواله المعاشية فوقع فى العوز الذى أداه إلى مديده وإراقة ماء محياه ولو كان ذلك تحت ستار رقيق وحاجز شفاف :

هـذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادىء الدين الاسلامى من كل وجه ومعارض لأوامره بل ومعطل لأكثرها تعطيلا

قلنا فيما سبق أن الاسلام هو الدين العام الذى يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقاً لا محيص منه لمن أراد أن يستقيم على الجادة الحكيمة وأثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة وقلنا أن الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الاسلام: « من تبتل فليس منا . » وأنه جاء لصلاح الدين والدنيا معاً « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . » وأكدنا بالأدلة الناطقة أنه يحض على الكسب والعمل ويردع عن الخمول والكسل بعبارات أشد تأثيراً على الأذهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان وأن الأعمال فى نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده فان ترك الانسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقاً موزوراً وأن نوى صالحاً فأخطأ فيه كان مثابا مأجوراً قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات . » وقال على رضى الله عنه مامعناه: « من أخذ الدنيا بما فيها وأراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس بزاهد . »

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه فى فصولنا المتقدمة وأقمنا عليه الأدلة التى لا تقبل النقض ونزيد هنا تحويل الأنظار إلى أحوال الجمعية الاسلامية الأولى فان أفرادها لم يكونوا منقسمين الى قسمين قسم دنيوى وآخر أخروى بل يروى لنا التاريخ أنهم كانوا كلهم يدا واحدة فى العمل للدين والدنيا معا فان أبا بكر وهو أول المسلمين كان تاجرا ولم يبطل مهنته إلا حين تبوأ عرش الخلافة . وروى الامام أحمد بن حنبل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم . ولقى أبو قلابة رضى الله عنه صديقا له فى المسجد فقال له : « لأن أراك تطلب معاشك خير من أن أراك فى زاوية المسجد . » وكان عمر رضى الله عنه يقول : « ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع واشترى . » ذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للأخرى فكان يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ويقول : « احرثوا فان الحرث مبارك . » ويقول : « اطلبو الرزق فى خبايا الأرض » ويقول : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة ويقول : « العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى طلب الحلال »

هـذه هى نصوص الديانة الاسلامية وأحوال جمعيتها الأولية فى عدم التفريق بين الحاجيات الدينية والدنيوية وهذا هو عين السبب الذى حمى المسلمين فى مبدأ أمرهم من الانقسام إلى حزب دينى وحزب دنيوى وهو الأمر الذى يوجد التخالف بين نزعات الأمة وينشىء التناقض فى أغراضها فيتولد التضاغن والتباغض بين آحادها رغما عن كل عوامل التأليف بينهم وبمرور الزمن يستحيل الأمر إلى حدوث تلاطم بين هذين القسمين تلاطما يفضى بالجمعية إلى الفوضى الفكرية ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت عرى الجامعة الأساسية التى تربط أجزاء الأمة بعضهم ببعض وأخذوا يشعرون بسريان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم فى مستقبلهم . فاذا انتهى حال الأمة إلى هذه الدرجة أخذ القسمان الدينى والدنيوى يتبادلان إلقاء المسؤلية على بعضهما فينسب الدينيون ذلك الفساد الطارىء إلى تمادى الكافة فى شهواتهم البهيمية ويعزوه الدنيويون الى تقصير أساتذة الدين عن الارشاد والقصور عن قمع نزغات ذوى الأهواء ويستمرون فى هذه الملاجة الفارغة بينما تكون جراثيم الفساد آخذة فى التفشى والانتشار جارفة الأمة أمامها إلى مهاوى الدمار والبوار .

هذه هى حالة الأمة الاسلامية فانها بعد أن طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الأولى فأوقعتها فيما وقعت فيه الامم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين أهلهما أخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقى التبعة على عاتقه ولعل جيلنا الحاضر هم أكثر الأجيال شعورا بضرورة فضائل الاسلام لبناء ما تهدم من مجدنا وأشدها تقريعا لعلمائنا فى تقصيرهم عن الارشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر . نعم اننا لنشعر بتهيء النفوس إلى انتشاق نسمات الكمالات الاسلامية المحيية لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الاخلاقى الذى قد عم وطم وساق النشأة الحديثة إلى نقطة فقدت فيه

الاحساس إلا بالدنايا والأدناس . نعم إننا نرى بوادر ذلك الشعور لائحة إلا اننا نستميح من قرائنا الحرية لاجل أن نقول أن ذلك الشعور لم يستكمل شرائطه الضرورية . فكأنى بالناس يريدون أن تمطر السماء عليهم هذه الفضائل الاسلامية فتغمر قاصيهم ودانيهم وهم جالسون على أسرتهم منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الأمل أو يجعله ممكنا . بل كأنى بهم يرون أن تلك الفضائل لا يمكن تأتيها إلا بواسطة رجال يلبسون شكلا خاصا من الالبسة أو يقرأون كتبا مخصوصة فى العلوم .

كلا فانا ان ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا وكنا كالكسالى يودون لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود فى دورهم المنزوية . كلا . ان الفضائل الاسلامية التى كان يفهمها الاعرابى الخلوى فى مدة قصيرة لا تعسر مطلقا على نشأة هذه الأمة المتهذبة .

أسس الاسلام لا تحتاج لاجل أن تنفذ إلى العقول إلى جدال أو إلى تمهيد بل هى قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك تشعر النفس عند علمها بها بطمأنينة وراحة لا يستطاع التعبير عنها بوجه من الوجوه . فان كان الرجل عالماً بحقائق الكون وأراد أن يفسر تلك الطمأنينة التى سادت على نفسه فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها فما عليه إلا أن يتدبر فى أسرار الخلق وفى تكاليف الحياة البشرية وفى النواميس الناطقة السائدة على مجموع هذا الكون بأسره وفى الغرض الذى يسعى إليه الانسان رغماً عنه ليرى بعينيه عياناً أن تلك الأسس الاسلامية على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها هى المحجة الوحيدة الى توصل الانسان الى سعادة مادته ومعناه وراحة دنياه وأخراه . وأنها هى نفس المحجة التى خلق الانسان مطبوعا على تلمسها رغما عنه والتى يراها الآن علماء العالم على بعد منهم ويسعون فى تذليل كل الصعوبات للوصول إليها .

إذا كان هذا شأن أسس الاسلام من السهولة ومتانة القواعد فلماذا نتباكى على فقداننا تلك القواعد ونشتكى من قصور المرشدين عن إبانتها مع أنها مبسوطة بأصرح عبارة وأرق إشارة فى القرآن الشريف وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كتبه سلفنا الصالح ؟ هل يظن المسلمون أن الله تعالى لم ينزل القرآن إلا ليفهمه رجال مخصوصون أو ليقرأ سردا وبدون تعقل على رؤوس القبور وفى أوساط الطرقات أو ليتلى بألحان الغناء فى ليالى الأفراح بين لغط الترجيلات ودخان السجارات ؟ أم هل يظنون أن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح أن تتلى إلا لقضاء الحوائج وحصول البركات فى المنازل ؟ ليعلم المسلمون إن كل هذه الأمور تنافى الاسلام وتساعد على استجلاب سخط رب الاسلام

ان القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة ، وأحاديث رسول الله وهى خلاصة قوانين العمران لم يأمر الله بتدوينها فى الطروس ونشرها بين سائر طبقات الأمة إلا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها فانها ملاك السعادتين ومساك الحياتين وفى تاريخ المسلمين أكبر حجة على قولنا هذا . ها نحن شعرنا بالحاجة إلى كمالات الاسلام فما بالنا قعود عن أخذ حاجتنا منه كل على قدر استطاعته ، ولا نكلف نفساً إلا وسعها ،

ألسنا الآن كالكسالى يرون الغذاء أمام أعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فينتظرون انصباب الطعام الى أفواههم بدون مد أيديهم ؟

أليس من العار الشائن أن نصرف كل أوقاتنا فى مطالعة روايات (أميل زولا) و (بول بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذى جمع بين دفتيه أسرار هذا الوجود بأسره ؟

انا ندعى التمدين والتنور ونميل للتشبه بالمتمدينين فى الجرى وراء اكتشاف مساتير الكون ونرمى القاعدين منا بالخمول والموت الفكرى

ونحن رؤوسنا إعجابا بنظريات (سبنسر) فى العمران (وغمبتا) و(تيرس) فى السياسة و (ريبو) فى الفلسفة حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذى لو أفنى علماء العالم كله أعمارهم فى تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا إلى الغاية منها ، لعلنا نخجل من الاشتغال بالأمور الدينية تقليدا لغيرنا خشية من أن نتهم بالقصور العقلى . إن كان كذلك فهو تقليد أعمى كان يغنينا عنه إجالة نظرنا قليلا فى كتابنا السماوى لنرى أن الاسلام ليس بالدين الذى يأمر بالانزواء والاستكانة أو بالتعصب مع الانغماس فى المهانة أو باضناء الجسم فى العبادة مما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبلة بل هو الدين الذى يأمر بالكد والعمل ويحبب الانسان السؤدد وعلو الهمم ويهديه إلى الفضائل والشيم ، كل ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها إلا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس فى رابعة النهار . فالمتكلم فى الاسلام والحالة هذه لا يكون مرددا لأفكار قامت تكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقاً عن لسان الحكيم العليم بحكم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنظريات تصيح بالدلالة عليها ألسنة هذا الوجود الصامت . بقواعد لا يعتريها خلل ولا يعتورها زلل . بأسس عليها يقوم العمران ومنها يشرف الانسان على جنان العرفان . بأنوار تنفذ إلى صميم الفؤاد فتشرق فيه شمسا لا يخبو ضياؤها ولا تنطمس لألاؤها تنير على المرء حزون هذه الحياة الكدرة وتفك له عقدها العسرة . تداوى جراح الأفئدة مما أصابها من سهام الحوادث وتضمد قروحها من طعنات الكوارث وتطرد عن النفوس شياطين أوهامها وتطهرها من غاشيات أحلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها تتجه إلى سعادتها من بابها وتمزق دونها كثيف حجابها حتى تجعلها صالحة لأن تطل على الملكوت الأعلى وتنال منه زبد العلم الأجلى .

ألا تنظر إلى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجية قبل اشراق الاسلام عليهم ثم إلى مصيرهم بعده ؟ ان الرجل منهم فى الجاهلية كان يذهب بابنته إلى الفلاة وهى على ذراعيه فيحفر لها حفرة وهى تنظر إليه وتحنو بفؤادها عليه فلا يجد فى نفسه فؤادا يحنو عليها وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب إلى أهله فرحاً مسرورا كانه لم يفعل إلا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وضر الشنعة . تدبر بعيشك إلى هذه القلوب القاسية والاحساسات العاتية ثم انظر إليهم بعد اعتناقهم للاسلام . ترى ماذا ؟ ترى رجالا نالوا من العواطف الكريمة مالم ينله رجل ربى فى مهد الحكمة وغذى بلبان الرحمة . ترى أمثلة للشهامة والفضيلة وأساطين للسجايا الجليلة أو الأخلاق الجميلة قاموا يعلمون فلاسفة الأخلاق بمثالهم و مقالهم قصور ما دونوه فى أسفارهم . ترى أناساً نورهم يسعى بين أيديهم وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم يفضلون الملائكة تقوى ووقارا ويفوقون الأكاسرة همة واقتدارا . أنظر إلى عمر بن الخطاب وهو الذى تعلم تاريخه فى زمن الجاهلية وإلى ماذا آل أمره بعد أن أسلم ببضع وعشرين سنة : آل أمره إلى إدراك حكمة وسياسة وثبات أعز بها الاسلام والمسلمين وحفظ بها قوام ملكه العظيم بما يقصر عنه أكبر ملك تربى فى مهاد التشريع ويكبو دونه أعظم فيلسوف ولد فى حجر الحكمة والسياسة . وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها أو يمرض لأجلها أياما عديدة . فكأن المتنبي عناه بهذا البيت :

قسا فالاسد تفزع من بين يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

من أين حصل له هذا وبماذا ناله ؟ هل درس الأخلاق فى مدارسها الكلية أو علم العمران فى مجامعها العلمية أو السياسة فى معاهدها البرلمانية أو التشريع فى المدارس الحقوقية ؟ كلا . لا شيء من ذلك ولكنه كان يتلو

القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيهما ويسأل غيره فيما كان يتعسر عليه منهما

هذا رجل واحدقد ضربناه لك مثلا لترى بعينك سلطة الدين الاسلامى فى إحالة الطباع وسرعة تأثيره فى تغيير اتجاه النزعات وفى تنوير أذهان أبنائه ومتبعيه فما بالنا ننبذ هذه الكنوز وراء ظهورنا ونظل نتساءل عن حكمة نتعلمها أو أخلاق نتصف بها ونقتنع بعد إخفاق المسعى بأن نلقى تبعة فسادنا على غيرنا ونهدر بشقاشق تسيء حالنا وتقبح مآلنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القصور والمدافن يتلوهما رجال لا خلاق لهم من العلم هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول : « واتخذوا القرآن عضين فوربك لنسئلنهم أجمعين . »

خلاصة القول أن دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الاسلام ويدركوا أن غرضه الأول هو ترقية حالتى الانسان المادية والأدبية معاً لارتباطهما ببعضهما ارتباطاً كلياً لأجل أن تستطيع النفس أن تعرج إلى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجاً سريعا . وأن يفقهوا أن لفظة عبادة فى الاسلام لا تعنى فقط العبادة الجسمية من ركوع وسجود بل أن كل ما يفعله الانسان مريدا به أمراً ينبنى عليه إصلاح لذاته أو لأسرته أو لجمعيته أو لبنى نوعه أو للكائنات كلها هو فى نظر الاسلام من أحسن أنواع العبادة وأشرف أشكال الطاعة لله عز وجل : « إن المؤمن ليؤجر فى كل شيء حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » والشاة ان رحمتها يرحمك الله » حديثان شريفان . وإن يدركوا أن الاسلام لا يعارض التقدم فى الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب إليها ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها . هذه الأسس الاسلامية تنطق بتأيدها مئات من الآيات القرآنية وألوف من الاحاديث النبوية وأحوال الجمعية الاسلامية الأولية حتى إن المرشد المتنور ليستطيع أن ينقشها فى مخيلة تلميذه فى درس واحد

هذا هو دواء المسلمين ولكن دون وصوله للعامة المحرومين من المطالعة والاطلاع عقبات لا يزحزحها عن مواضعها إلا كرور الزمان عليها وحصول مناسبات مساعدة لنشرها

وإنا نختتم مقالنا هذا برفع أكف الرجاء إلى الله جل وعز أن يهدينا إلى صراطه المستقيم ومنهاجه القويم وأن يوفقنا للسير على هدى رسوله الكريم وأن يحسن خواتمنا أجمعين آمين . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومتبعيه وسلم تسليما كثيرا

الأصول التى دعا إليها الاسلام

رأينا أن نلحق بهذا الكتاب بحثاً كتبناه بعد وضعه بنحو عشر سنين لما فيه من بيان لأصول الاسلام تحت نور العلم العصرى، وهو بحث له موضعه من هذا الكتاب فاليك :

الاسلام هو الدين الذى جاء به خاتم النبيين محمد بن عبد الله النبى العربى صلى الله عليه وسلم وهو من أشهر الأديان وأكبرها شأنا وأقواها على الشبه وأبعدها عن الشكوك

أوحى هذا الدين فى القرن السابع الميلادى أى فى عصر كان فيه العقل الانسانى قد بلغ رشده، واستعدت فيه النفوس لقبول وحى يوفق بين الدين والدنيا ويؤاخى بين العاجلة والآجلة، ويطلق للعقول حريتها الفطرية لاستجلاء غوامض الوجود، واستطلاع خافيات النواميس العاملة فيه

مما يميز الاسلام عن سواه من الأديان التى تقدمته تصريح كتابه بأنه دين عام قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وقد كاتب النبى صلى الله عليه وسلم ملوك الممالك المعروفة لذلك العهد يدعوهم إلى الاسلام باسم هذا النص القرآنى :

(هل كان بالأمم حاجة إلى دين جديد ؟) إن مجىء الاسلام للناس كافة وليس للعرب خاصة يستدعى أن يكون لجميع أمم الارض حاجة إلى دين جديد فكيف كان حال تلك الأمم فى عهد البعثة المحمدية، وماذا كان مبلغ تلك الحاجة منها الى الدين أو الى أى حادث اجتماعى جلل؟

يحمل بنا أن نورد ذلك عن لسان أحد الأجانب عن الدين من بحاثة الافرنج فانه أدنى لأن لا تتهم بتحيز وأن لا نوصم بمغالاة. فقد كتب البحاثة الفاضل المسيو (جون لابوم) الفرنسى فى مقدمة الفهرس الذى وضعه للقرآن

الكريم المترجم إلى اللغة الفرنسية بحثا فى هذا الموضوع نراه أجمع ما كتب فى هذا الباب ونحن موردوه هنا عنه . قال :

« لأجل أن يفهم الانسان تمام الفهم مرمى دعوة من الدعوات يلزمه أولا الالمام بحال الداعى فى ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للشرع العربى مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية

« حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم ملبدا بغيوم الاضطرابات والفتن فكان شعب (الوزيغو) الآريين فى أسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم اجبروا إلى الدخول معه فى حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لامجرد ولاء المساعدين المحامين

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التى شبت نيرانها بين المملكة الوزيغوتية (برنهو) والمملكة الفرنكية (فيريديجوند) تهيء للتاريخ أشد الصحائف اثارة للاسى والكمد

« أما فى انجلترة فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة — وهى التى كانت فى ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الحالكة .

« أما فى إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد خطورته القديمة وكانت رومة وهى الشطية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعنى مملكة الرومان) فى حالة تململها من استحالة أمرها إلى مركز دينى بسيط ترتج وتضطر كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزا دينيا أصليا . فكانت تهيء نفسها لأن تكون مركزا للبابوية وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلمانى) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان . ولكنها بعد ذلك لم يسعها حمل نير (الهيروليين) (والاستروغوتيين) وامبراطرة المملكة الرومانية (واللومبارديين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولا

« أما مملكة اليونان التى كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق فكان (الاسكندينافيون) و (النورفيجيون) و (الدانيماركيون) يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (تراقيا) و (مقدونيا) و (لومبارديا) و (إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة

« فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهى تلك الأمة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية

« التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول من التاريخ المسيحى لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا فى القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة ، أما هذه فوحشية حرية تلعب بالأرواح وتتمرغ فى الأوحال(١)

(١) كتاب الأنبياء الفصل السابع عشر

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوروبا فى شىء فمملكة (تيبت) و (الهند) التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، السياسة والفلسفية . وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية

« أما السفح الشمالى من الهضبة الآسيوية العالية التى هى فى حوزة الروسيا الآن . فكانت غير معروفة على الاطلاق . أما مملكة الفرس التى كانت أحوالها مرتبطة بأحوال العرب خصوصاً من لدن غارة الاسكندر المقدونى فكانت مشتبكة فى حروب مع اليونان الرومانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على اسيا الغربية

« أما فى افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلطة دائبين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك وكان هذا شأنهم أيضا فى الأقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى (الفنداليين)

« والخلاصة كان جو العالم الأرضى متلبدا بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل جهة . وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى اصلاء نيران الحروب والمعارك ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وان كان وقتيا إلا شىء واحد وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة وبعض الجرائم الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح إلى

روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقى فى المستقبل لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت إلى وحشية محضة

« ومع هذا كله كان هناك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الأمم التى كان يقال إنها متمدينة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوروبا إلا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللغط إلا فى غاية الضعف والضؤولة . وكانت تجهل وجود الهند والصين ولم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان الغربية القريبة من روسيا إلى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك بالتبعية الاسمية عنها . على أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جدا لأن أبناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويدا رويدا إلى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية انها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماما إلا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم

« أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة . أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفندالين فكانوا لا يحلمون بوجودها

ثم قال : قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) فى كتابه تاريخ العرب :
« إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم وكان عرب سورية دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لا غبار عليه »

ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أى دين من الأديان قال المسيو « دوزى » فى كتابه تاريخ « عرب إسبانيا » : كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية . فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين ولكن ما وجد فمنسوب إلى اليهود وحدهم أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون . وكان المتمذهبون بها لايعرفونها إلا معرفة سطحية . . . وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الاعظم من الامة الذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام . ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة وكان من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس . فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى وكان الأطفال من بنى عقد يدينون لعطارد وبنو طى

يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية . قال (كوسان دوبر سوفال) فى كتابه تاريخ العرب : « كان منهم من يعتقد بفناء الانسان إذا خلعته المنون من هذا العالم ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة . فكان هؤلاء الأخيرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهى نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده فاذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة « أسقونى » ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لابوم بعد إيراده هاتين الجملتين عن الأستاذين السابقين « وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضا ـ وهى نقطة تلفت النظر ـ تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها . ولو لم يكن ـ وهو أمر أغرب من سابقه ـ ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا إلى الالتفات بنوع أخص » . ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقطعة : كان العرب مغرمين بشرب الراح

« ويوجد من الشعر مايدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون به ويلعب الميسر وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا

وكان هنالك عادة أفظع من كل مامر وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الاهل لبناتهم . (أى دفنهم أحياء)

(هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى

« الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلى العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية ، ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب فلم يكن ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الأساطير التاريخية . وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين . تلك القرابة يستدل عليها بتساويهم فى حب الكسب وتازيهم فى الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئا فشيئا إلى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين ولكن لم يكن فى حالهم نور يستلفت البصر تألقه ، وفى حالة مسيحى الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد

« فى عهد هذه الأحوال الحالكة وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » انتهى

من هذا البيان يرى القارىء أن العالم الانسانى كان بحاجة إلى حادث جلل

يزعج الناس عما كانوا فيه ويضطرهم إلى النظر والتفكير فى أمر الخروج من المأزق الذى تورطوا به ، ولله فى خلقه سنن لا تتبدل ولا تتحول ، فلا يتقادم العهد على دين ، ويجمد منه الناس على شكل يمنع ترقيهم حتى يبعث إليهم ما يلفتهم إلى النظر ، وينبههم إلى العبر ليجددوا مارث من تقاليدهم وفسد من أحوالهم ، وقد جاء الاسلام فأحدث هذه النتيجة المطلوبة بما أقام من الدول وأسقط من الممالك ، وأصل من الأصول ، وهدم من التقاليد وناهيك به من انقلاب زعزع أركان دولتى الرومان والفرس وهما دولتا العالم إذ ذاك فى أعظم قارتيه آسيا وأوروبا وقد استتبع تزعزع أركانهما ضعفاً سرى فى مجموع تقاليدهما الرثة فتخلصت أمم من نير استبدادهما وتهيأ ما بقى منها للدخول فى أدوار جديدة من الحياة وتلا ذلك كله ما تراه اليوم من النهضة المستمرة فى عالمى العلم والعمل

(ما هى الأصول الجديدة التى حملها الاسلام للأمم وتغلب بها على جميع الأصول الموجودة لذلك العهد ؟) الأصول العلمية والاعتقادية تتنازع الحياة كما تتنازعها الأمم فيغلب الأكمل منها ما عداه ويبيده ويستولى على العقول والأرواح دونه ولا يزال سائداً حتى يأتى ما هو أكمل منه فيتغلب عليه كما تغلب هو على ما سبقه وهلم جرا . هذه سنة الله فى الأمم من يوم وجودها إلى اليوم

نعم قد يتغلب الباطل على الحق أحياناً ولكنه لا يتغلب عليه إلا إذا كان الحق قد ألبس لبوس الباطل وصار بما شيب به من الأضاليل أشد ضرراً من الباطل نفسه . أما ما دام الحق بديباجته الخاصة به لم تشبه شوائب الاضاليل فلا سبيل لأى باطل عليه مهما كان حوله وبطشه

فاذا قلنا جاء الاسلام فتغلب بأصوله على جميع الأصول التى كانت قائمة على عهده فمعنى ذلك أن أصوله كانت أكمل من تلك الأصول القديمة وأصلح للأمم منها

كانت فى العالم مدنيات قائمة قبل مجىء الاسلام وعلى عهده أجلها وأكملها كانت المدنية الرومانية ناهيك أنها تغلبت بها على دول الأرض فلم تبق فيها أمة تنازعها السلطان إلا دولة الفرس فى آسيا وقد يتلو الناس تاريخ الرومان فيرون حروبا تشب وملوكا تتولى، وقوانين تسن ، وأصولا تدعم وربما أكبر جهلة المؤرخين هذا الأمر وعدوه مما يصل إلى حد الخوارق ولكن لاهل العلم نظراً غير نظر الجاهلين فان تلك المدنية الرومانية على ما ولدت من الأصول والقوانين ومصرت من الأمصار وأقامت من الآثار كانت مطبوعة بطابع الوحشية وكانت فى أكمل أدوارها بحاجة إلى التعديل والتقويم بل إلى قارعة سماوية تحل بها فتقلبها رأساً على عقب

جاء فى دائرة معارف لاروس ما ترجمته :

« ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة فى صور قوانين . أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجماعة فهى بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص أما وطنيتها فكانت لابسة لبوس الوحشية فكان لايرى فيها إلا شرها مفرطا وحقدا على الاجنبي وضياعا لعاطفة الشفقة الانسانية . أما العظمة فى روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن أعمال السوط والسيف فى العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالاسر وعلى الاطفال والشيوخ بجر عربات النصر » انتهى

نقول إذا كان هذا شأن الرومان فى نظر العلم فشأن الفرس لا يحتاج لبيان فقد كانت القسوة والاستبداد الحكومى وتأله الاكاسرة وغطرسة القادة فوق ما يتصوره العقل . فان كان الاسلام قد تغلب على الرومانيين والفارسيين فانه لم يغلبهم بقوة سلاحه ونظام جنوده ، لان السلاح والنظامات الحربية كانت من خصوصيات تلك الأمم ، ولكنه غلبهم بسلامة أصوله ،

واصالة تعاليمه . فماذا كانت تلك الأصول القديمة وما هى هاتيك الأصول الاسلامية وكيف تغلبت الثانية على الأولى وانتهى الأمر بأن قادت العقول والأرواح معاً ؟

(الاصل الاسلامى الأول) التخليص بين الانسان وخالقه

كان الرجل من أهل الملل السابقة تحت وصاية الكهنة حتى فى خطرات نفسه وهواجسها فلم يكن ليبرم أمراً أو لينقضه فى شؤونه الخاصة أو العامة إلا باقرار رجال الدين عليه. ولو وقف الامر عند هذا الحد لكان الحال أشبه بتغلب طائفة على أخرى فى الامور الحيوية ، ولكن الأمر المزعج أنهم فصلوا ما بين الانسان ومبدعه وأقاموا أنفسهم وسطاء بينهما فما كفى الرجل أنه لايستطيع أن يبيع أو يرهن أو يتعاقد أو يموت إلا بحضور أحدهم حتى حرموه أن يدعو ربه أو يتوب إليه من ذنبه إلا بوساطتهم . فكان الرجل إذا أراد الزلفى من الله رشاهم وملأ أيديهم بالنضار فيؤذن له أن يتصل من مولاه بسبب ، وان ضن عليهم وقبض يده عنهم أقصوه عن تلك الحضرة وأوهموه أنهم حبسوا عنه رحمة ربه

بمثل هذه الايهامات تغلب رجال الدين على عقول الأمم فأصبحت فى أيديهم كالطفل فى يد أمه وناهيك بما يستتبع هذه العبودية من وقوف حركة الأفكار ، ونضوب معين العقول وتعطل حياة الشعور فلاجرم عاشت الأمم دهورا طويلة وهى فى حالة جمود شامل تحت آصار هذه الوصاية الثقيلة حتى جاء الاسلام بهذا الاصل الأول وهو التخليص بين الانسان وخالقه ، فقرر أن الله قريب من عباده يسمعهم ان نادوه ويستجيب لهم ان دعوه . فقال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » بل قرر الاسلام أن الله أقرب الاشياء الى عباده فقال تعالى : « وهو أقرب اليهم من حبل الوريد »

ولم يشترط فى قبول عبادتهم أن يرأسها شخص من طائفة تنحل نفسها صفة التوسط بين الناس وخالقهم فلكل إنسان أن يؤدى صلاته ونسكه بنفسه . أما الصلوات الجامعة كصلاة الجمعة والعيدين والجماعة فالذى يرأسها الامير نفسه أو من ينيبه عنه ولا يشترط فى النائب والامير أن يكون من طائفة خاصة بل يجزىء فى النيابة كل رجل من المسلمين ولو كان صانعاً أو تاجرا أو زارعا

بهذا الأصل الاسلامى خلص ما بين الانسان وربه فلم يعد تابعاً لاحد من إخوانه فى البشرية ولم ير لرجل مثله فضلا عليه من وجهة روحانية . فكان هذا الاصل أول حجر وضعه الاسلام فى أساس الحرية الانسانية الصحيحة .

(الاصل الاسلامى الثانى) تقرير المساواة العامة . كان الناس قبل الاسلام ينقسمون الى ثلاثة أقسام قسم رجال الدين وقسم رجال الحكومة ومن التحق بهم من الشرطة والجنود وقسم العامة . فكان رجال الدين هم الاعلون مكانا ، والارفعون مقاماً ، وكان رجال الحكومة يلونهم فى الدرجة وكانت الطائفتان معا عاملتين على تسخير العامة لمصالحهما وابتزاز ثروتها واجتياح ثمراتها لسد حاجة شهواتهما وتوفير لذاتهما الأولى باسم الدين وخدمة منزله والثانية باسم السلطة الدنيوية . فلما جاء الاسلام قرر أن الناس كلهم سواء أبوهم آدم وأمهم حواء . لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو عمل صالح فقال تعالى : « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عندالله أتقاكم »

بهذه المساواة محيت السلطة الروحية التى طالما سامت الشعوب الخسف وألبستهم لباس الذل . ولم يعد للكبراء والقادة ما كان لهم من مزاعم فى احتكار السلطة وتوريثها آلهم وذويهم بغير حق ، وصار ميزان التمايز

الأعمال الصالحة ، والفضائل الحقة ، حتى اضطر أول خليفة ولى المسلمين أن يخطب الناس فيقول : « يا أيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ولقد وددت أن واحدا منكم قد كفانى هذا الأمر فلو وجدتم فى اعوجاجاً فقوموه »

فكان هذا الأصل ثانى حجر وضعه الاسلام فى بناء صرح سلطة الأمة ارتفعت عليه الشعوب الى أعلى منصات الشعور بالكرامة الاجتماعية ، وبنت عليه ما قدر لها من معارج الصعود الى مكانات الرفعة القومية

(الاصل الاسلامى الثالث) تقرير مبدأ الشورى فى الحكومة . كان الناس قبل الاسلام يرون أنفسهم قد خلقوا لان يطيعوا طائفة الحاكمين طاعة عمياء ، ليس لهم من أمرهم حق النظر فى سلام ولا حرب أوفى ابرام ونقض ، فكانوا يسيرون كما تسير الانعام السائمة الى حيث يريدون ولا يريدون. وما تقرأه فى تواريخ الرومان واليونان من تكوين المجالس الشورية وتأليف النظامات الدستورية لم يكن فى حقيقته الا نوعا من الاستبداد فان السلطة فيها كانت لاتزال وقفا على أفراد من الاقوياء ، أما عامة الشعوب فكانوا على ما كانوا عليه قبل قيام تلك المجالس والجمهوريات لاحق لهم فى تقويم عوج الحاكمين ، وهل كانت المجالس الشورية فى أثينا وروما الا من حظ طائفة الاشراف دون سواهم فتارة كانوا يستبدون بالناس جميعا وطورا يكونون آلة فى يد الحاكم الفرد يسوق العامة بهم الى حيث أراد ؟

فلما جاء الاسلام قلب هذا النظام رأسا على عقب وجعل لكل فرد حق الرقابة على الحكومة وابداء الرأى فى الشئون العامة فقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وقال تعالى « وشاورهم فى الامر » . وزاد فجعل الدين النصيحة قال عليه الصلاة والسلام « الدين النصيحة . قالوا لمن يارسول الله ؟ قال لله ولرسوله وللمؤمنين عامتهم وخاصتهم » وابعد مرمى هذا الاصل فقرر أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من الواجبات على كل آخذ به كبيرا كان أو حقيرا

حتى ان الله لما سرد بعض حوادث الامم الغابرة وذكر ما أصابهم من القوارع والمحن علل ذلك بقوله « انهم كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يعملون » وقال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا » وقال عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم المنكر فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »

بهذا الاصل علم كل مسلم ان له حظا من ادارة شؤونه العامة فلم يعد يعتبر نفسه آلة فى يد الرؤساء ، ولا جسما مهملا فى بناء الاجتماع ، وناهيك بأمة ينبث مثل هذا الشعور العالى فى جميع آحادها ، وتنتشر آثاره فى حركاتها وسكناتها

(الاصل الاسلامى الرابع) تعليق السعادة والشقاوة فى الحياة الاخرى على الاعمال والصفات الذاتية ، لاعلى الشفاعات والقرابات

كان الناس قبل الاسلام يعتقدون أن أمر العالم الروحانى بيد رؤساء الدين لارادلارادتهم فيه . فهم المسعدون والمشقون ، بأيديهم الاثابة بالجنان ، والحور والولدان ، أو العقاب بالنيران ، والتعذيب والحرمان ، فكان من لا يمت اليهم بنسب ، أو يتصل منهم بسبب يعتبر نفسه فاقداً مزية الحظوة بالحياة الأبدية فيعمل على استنزال رضائهم جهده بالمال تارة ، والطاعة العمياء أخرى حتى مرنت الشعوب بهذه الوساوس وصارت الذلة ألصق بها من أقرب غرائزها ففقدت نخوة الاحياء وعزتها ، وأصبح الآخذون بتلك الاديان كالآلات الصماء فى أيدى الرؤساء يرمون بهم حيث يشاؤون من متاهات الوجود . ولا تسأل عما يلحق نفوسهم من الصفات ، ويلم بمواهبهم من الانحطاطات من جراء مثل هذه العقائد التى ترسم أن الظلم والمحاباة من أخص صفات الحياة . فهل يستقيم مع مثل هذه الحال ميزان الاخلاق وينتظم شأن

المعاملات ؟ وهل يكون لمثل هذه الجماهير من الامم حظ من وجود عال فى هذا العالم يرفعون به شأن الانسانية . أو يقومون فيه بخلافة الله فى أرضه ؟

جاء الاسلام فقرر أن مناط السعادة فى الدنيا والآخرة الاعمال الشخصية وان القرابات والشفاعات وجميع أسباب الزلفى من الرؤساء لاتغنى عن الانسان شيئا . فقال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال تعالى « ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى » وقال عن الذين لايعملون صالحا « فمالهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » وقال عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة الزهراء (اعملى يافاطمة فانى لاأغنى عنك من الله شيئاً) وقد ورد فى القرآن أن نوحا شفع لابنه فلم يجبه الله لان ابنه كان غير صالح . قال تعالى فى سياق تلك الحكاية « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت احكم الحاكمين . قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح »

بهذا الاصل أجهز الاسلام على ما كان قد بقى من سلطة الرؤساء الروحانيين وزاد النفوس نزوعا الى الخلاص من أسر المسيطرين . ولاتسل عما استتبع هذا المبدأ من ادراك الانسان لمبلغ العهدة الملقاة على عاتقه ، ولحقيقة مركزه فى مجتمعه وعالمه ، فكيف لاينتج من هذا الشعور أصل الاعتماد على الذات ، والثقة بالقوى النفسية والاعتقاد بانها كافية فى ايصال الانسان لارقى مايتوق اليه من درجات السعادة المرجوة فى هذه الحياة ومابعدها

(الاصل الاسلامى الخامس) الاعتراف بحقوق العقل والعلم

كان الناس قبل الاسلام يعتقدون ان الدين والعقل نقيضان لايجتمعان وعدوان لايتفقان ، لما كانوا يرونه من الخلاف الشديد بين عقائدهم وعقولهم ، وقد غلوا حتى زعموا أن العقل أحط من أن يدرك العقائد فى جلالها وسموها ، وزادهم رؤساء الدين ضلالا فى هذا الزعم بما كانوا يبثونه فى أذهانهم من

أن حقائق الدين يجب أن تكون أرفع من مدركات العقل لانها انما تنزل عليهم من عالم روحانى يختلف فى جميع شؤونه عن عالمهم الحسى وغاب عن تلك الامم انه لو صح هذا الزعم لصحت جميع الخرافات التى يدعى أصحابها بانها أديان منزلة ولما استطاع انسان أن يميز بين غث وسمين مما يقدم اليه من مختلف المدركات ومتناقض المقالات

جاء فى دائرة معارف لاروس من باب الازراء برؤساء الدين الذين يوهمون الناس بانحطاط العقل عن ادراك الامور الدينية ماترجمته :

« إن قلنا الاحسان يقتضى اعتقاد الأشياء المعقولة قالوا لا لا . ثم يسعون فى تذليل هذا العقل الانسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم ، حتى إذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات دأنها أمور عادية وتظن الأبيض أسود وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا . نطيع من ؟ هل نطيع العقل ؟ الواجبات الطبيعية ، العواطف القلبية ، النواميس الحقيقية المفيدة للانسانية والتى تنتج من تلك القواعد نفسها ؟ لا ولكن أطع وأنت أعمى للذى يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك أو باحداث مقتلة عامة فانه ليس لك لاروح ولاضمير انما أنت ميت فى الله » انتهى

جاء الاسلام فقرر أن العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل وأنه قسطاس الحكم ، وفيصل التفرقة بين المشتبهات . فأكثر القرآن من ذكر العقل فى مثل قوله (أفلا تعقلون) (وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال عليه الصلاة والسلام (الدين هو العقل ولادين لمن لاعقل له) وقال (ياأيها الناس أعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه ، واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم) قال عليه الصلاة

والسلام : (لا يعجبكم إسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله .) وأثنى قوم على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال لهم : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال « ان الاحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم »

لم يقف الاسلام عند هذا الحد فى رفع قيمة العقل بل تحله سلطته المطلقة فى الحكم على العقائد فطالب كل معتقد بالدليل على حقيقة معتقدة ، حتى ذهب جمهور من العلماء ان ايمان المقلد غير مقبول قال تعالى من باب المطالبة بالدليل : (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه) : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)

وقال من باب النعى على الآخذين بالظنون والأوهام : (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون) وقال سبحانه وتعالى : (وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون)

ثم بين خطر الاعتقاد بدون عقل ولا علم وكشف عن عظم العهدة فى ذلك فقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)

بهذا الأصل تحررت العقول من أسر العقائد الباطلة وظهر الدين لاول مرة مؤاخياً للعقل ، معتضدا به فى تقرير المعتقدات ، وتحديد المعاملات . فكان هذا فاتحة عصر جديد دخل به الدين فى مجال المقررات العلمية بعد أن كان مطروحا فى زوايا التوليدات الخيالية . ولا تسل عما استتبع هذا الاصل من رقى الأمم فى معارج الفهم ، وسموها فى مراقى الفقه ووقوفها قوية عالية الرأس أمام أهل الخداع والمطامع من المتأولين للنصوص الدينية الذين يرمون لقيادة العامة بأهوائها ، وتسخيرها بأوهامها

قال لاروس فى دائرة معارفه : « إذا بحثنا بدون غرض ولا وهم عن سبب الرقى الذى حدث فى العالم المادى والفكرى والخلقى منذ طفولة الجماعات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا خلاص العقل من الضغط عليه »

وقال لاروس أيضاً فى دائرة معارفه : « من لدن زمن الاصلاح لغاية الثورة الفرنسية استمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محررى العقل وبين الضاغطين عليه من القدم ولأجل الاعراض الكلى عن أساطير الماضى ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنسية فى ترميم ما تهدم من أركان الجماعة وصار تعليم النشء من أهم اشتغالاتها » انتهى

(الأصل الاسلامى السادس) المؤاخاة بين الدين والمدنية

الانسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع لأن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيعه من كمال جسدانى ولذة بدنية ويدفع عنها ما يمكنه دفعه من مبيدات الوجود ومهلكاته ثم إن ما متع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول لأكثر رغائبه مادام يعمل للحصول عليها بالوسائل المقررة .

على هذا فطر الانسان وقد حقق لنفسه بعض هذه الأمانى فى أزمنة مختلفة ولكن قادة الأديان لأجل أن يقبضوا على نواصى الأمم ويسخروها لأهوائهم خشوا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للانسان إلى التملص من قيودهم والتخلص من سطوتهم فيضيعوا مكاناتهم الموهومة فمزجوا بتعاليم الدين ما ليس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة وحببوا إليهم الزهد والتقشف نعم أن الله أرسل بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق فى الدنيا ونعيمها ولكن كان ذلك لأسباب خاصة فى أحوال تقتضيها لا لأن الدين بطبيعته عدو للمنافع المادية ، وخصم للسعادة الجسدية

تمسكت أمم بالدين المشوب بتلك التعاليم فانحط أهله إلى أسفل الدركات وصاروا أضعف الناس فى ميدان التغالب الحيوى ووقر فى النفوس أن الدين ينافى كل عمل يؤدى إلى النعيم البدنى فنجحت الشبه والشكوك وتناقضت تعاليمه والفطرة البشرية . وتمسك قادته بأصولهم فأخذوا يعملون على إبادة كل نزعة تبدو من الأمم لطلب الرقى وأصبح الدين فى أيديهم آلة للتعذيب والقهر وكانت الحرب سجالا بينهم وبين الدعاة للمدنية حتى تم لهم الفوز المطلق فنضبت موارد العلم ودرست أعلامه وأمسى العالم فى ظلام حالك من الجهل والعماية

ظهر الاسلام فقرر أن الدين ليس عدوا للمدنية بل هو دليلها الصادق ومرشدها الخبير فقال تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وقال تعالى : (ربنا آتنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) وقال تعالى (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) وقال تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك)

ولما كان العامل فى ايجاد المدنية المادية هو العلم قرر الاسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة فقال تعالى : (وقل رب زدنى علماً) وقال : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقال : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وقال : « من علم علماً فكتمه ألجمه الله بلجام من نار »

(الأصل الاسلامى السابع) تنبيه الانسان إلى أن للوجود الانسانى سناً لا تتبدل

كان الناس قبل الاسلام يتخيلون أن الجماعات البشرية كقطعان السوائم تصرفها إرادة رعاتها وتقودها إلى حيث يتفق مع مصلحتها ، وما كانت

أدوار التاريخ فى نظرهم إلا صنع الرؤساء والقادة يستطيعون تغييرها وتبديلها على ما تقتضيه سياستهم فكان نظرهم يتجه إلى أولئك الرؤساء. كلما لاح لهم عارض مصلحة، واستشرفوا بارق أمل، ثقة منهم أن إرادة سادتهم كافية فى تغيير كل حال أن هموا به وأرادوه. وفى هذه العقيدة من زيادة توريطهم فى العبودية لهم ما فيه. فلما جاء الاسلام قرر أن للوجود الانسانى سنناً لا تتحول ولا تتبدل لا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها حتى تبلغ الغاية مما ترمى إليه. فالجماعات البشرية فى مجموعها كائنات حية لها أدوار تأتى عليها وحالات تدخل فيها لكل دور منها شؤون ومقتضيات ولكل حال لوازم وعلاقات لا بد من ظهورها جميعاً كل فى حينه المقرر له من سن الاجتماع وصفات الجماعات

هذا الخلاف فى النظر بين القدماء والاسلام ذو شأن خطير فى باب الحقائق العلمية، وتأثير فى التعاليم الفلسفية. فالقدماء كانوا ينظرون للقادة نظرهم للآلهة المتحكمين فى إسعادهم وإشقائهم، إرشادهم واضلالهم فكان هذا الضلال فى العقيدة مكسباً وظائف أولئك القادة عظما وجلالا، ونفوس تلك الشعوب حطة وإذلالا ولكن الاسلام يقرر أن الأمم وفى مقدمتها ملوكها منفعلون جميعا لقوى متسلطة عليهم تابعة لناموس عام ينظم سيرها ويرتب أفاعيلها على حسب أحوالهم وبقدر استعدادهم وقابليتهم فهو ينظر فى أمر إصلاح الأحوال وترقية النفوس لا إلى القادة المتسلطين لأنه لا يرى أن لهم حولا فى أقل تغيير بل أنهم فى حقيقتهم أثر من آثار الحال التى فيها الأمم. بل ينظر إلى ذات الأمم فينبهها لواجباتها ويزعجها إلى تلمس منجاتها بقواها الذاتية وإرادتها الشخصية

القرآن أكثر من الزجر والوعظ والترغيب والترهيب فلم يوجه الكلام فى واحدة للكبراء والقادة ولكنه وجهه للناس كافة مثل قوله تعالى (يا أيها

الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) و(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) وما ذكر أولئك السادة إلا فى معرض النعى على الامم فى استسلامها لضلال قادتها واهواء كبرائها فقال : (وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) بل انه عدهم من آثار حيادها عن الطريق المستقيم كأنهم من كسب أعمالها ، وثمرة ضلالها فقال (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً)

ثم إنه لفت الناس لاستخدام قواهم المودعة فيهم إذا أرادوا تغيير أحوالهم ، وتحسين شؤونهم فقال تعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

لا جرم أن هذا الأصل أقوى باعث لهداية الأمم إلى الطرق الحقة فى حصولها على سعادتها وعروجها إلى كمالها . فان الأمم متى عرفت أن بيدها سعادتها وشقاءها وأن أحوالها المختلفة من ثمرة أعمالها لم تعد تعتمد فى تبديل شؤنها على غير جهادها وفى تكميل وجودها على سوى قواها الكامنة فيها

الأمم المتشبعة بمثل هذا الأصل الاجتماعى يستحيل عليها الاستخذاء لعظيم أو الاعتماد على فرد مهما بلغ شأنه من شرف المولد وكرامة المحتد وناهيك بهذه النزعة سائقا إلى الحرية الصحيحة والديموقراطية الحقة

من الآيات الدالة على ما ذكرناه من أن الاسلام قرر أن للوجود الانسانى سننا لا تتبدل قوله تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وقوله تعالى : (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

(الأصل الاسلامى السابع) لفت الانسان لنظام الطبيعة وتوجيه نظره لاسرارها الخفية

حرم رؤساء الدين على الأمم النظر فى الكون إلا فيما يمس العبادة ويتعلق بأداء واجباتها فرصد الآشوريون الأفلاك لمعرفة مواقيت العبادة .

وبرع المصريون الأقدمون فى صناعة النقش والتصوير والنحت والبناء بسائق الدين أيضا لتصوير الآلهة وإقامة النصب لها وبناء الاهرام عليها وعلى الموتى وليس فيما بين أيدينا دين يدعو الانسان للنظر فى الطبيعة لدرس أسرارها واستكناه خافياتها ليستخدم ذلك فى تحسين أحواله وترقية وجوده إلا الاسلام ، فانه لما جعل غرضه ترقية الانسان وإبراز قواه الكامنة فيه حرضه على النظر فى الكون فقال : (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) وقال : (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) وقال : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) .

لاجرم أن النظر فى الكون يستتبع استكناه نظامه ، واستكشاف أسراره ولا يخفى ما فى ذلك من الأثر البين فى إقامة الأمم على النظام. وتدريبها على محاكاة صنائع الله فى الابداع والاحكام وقد عملت الامة الاسلامية الأولى بهذا الاصل فبرع منها ألوف من العلماء جعلوا لعلم الطبيعة شأنا يذكر فى تاريخهم . ثم إنهم لم يتخذوه علما كلاميا نظريا بل جعلوه علما عمليا فاستخدموه فى إبلاغ مدنيتهم أوجا لم تصل اليه أمة قبلهم ولا يزال الاوربيون يترجمون من كتبهم ما يقفهم على أن العرب بلغوا من العلوم الطبيعية شأوا لا يزال مداه مجهولا

(الأصل الاسلامى الثامن) الاعتراف بحقوق ميل الانسان وعواطفه

فى الانسان ميول مختلفة وعواطف جمة وكلها فيه غريزية طبيعية أودعتها فطرته لتكمله فى شخصه ونوعه وتوصله بما تنشئه له من الحاجات والعاديات إلى أقصى ما قدر له من المدنية

فالانسان يميل لأجل حفظ شخصه للغذاء والكساء ولحفظ نوعه للزواج والاجتماع ولكنه بما ركب فيه من القوى المرقية لا يقف من هذه الحاجات

عند حد الضرورة فيميل لأن يفتن فى نوع غذائه ولباسه ومأواه ولا يزال على تلك الحال وهو فى كل اندفاعاته هذه يحصل من ورائها علما جديداً يبعثه لاستكناه مجهول ، واكتشاف سر ، وربما كان بعض افتتانه فى الوفاء لميوله هذه جالباً عليه من مصائب تجتاح كثيراً من آحاده ولكن من يبقى منهم يستفيد منها رقيا جديداً لما يفتحه عليه الفكر من مجالات الحيل وباحات الوسائل .

على هذا فطر الانسان ومن هنا نشأت مدنياته وعلومه وصنائعه وسيتأدى من هذا الطريق نفسه إلى كماله المنتظر الذى يعلو به عن مستوى الحيوان الأعجم

كانت قبل الاسلام أديان تنزع إلى وقف تيار هذه الميول بتقرير صنوف الرياضات وأشكال الحرمان ومنها ماعدا الزواج دنسا من الأدناس ونظر إليه نظرة للشر الضرورى فكان هذا النزوع من تلك الأديان سببا لتعطيل قوى النفس الانسانية وصدها عن استخدام جميع وسائلها ومنع بذلك ظهور آثارها البديعة فى عالم الحس . فجاء الاسلام معترفا بحقوق هذه الميول الطبيعية غير مطالب الانسان إلا بخصلة واحدة وهى الاعتدال فيها على حد قوله تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) حتى أنه لم يحرم عليه الدفاع عن نفسه بالقوة والتبسط فى استعمار الأرض لعلمه بأن الحرب كانت لدى بعض الأمم من الحاجات التى لا غنى لها عنها وهى تحتاز دورا من أدوار الاجتماع فطالب ذويه بالعدل فيها . وعدم الايغال فى اشباع عاطفة الانتقام فقرر أولا ضرورة الدفاع بقوله : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ثم نص على وجوب الانصاف فيها فقال تعالى : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)

بهذا الأصل حفظ الاسلام لمتبعيه جميع صفات الأمم الحية المستاهلة للتدرج فى مراقى الكمال البشرى . ولو كان العرب الأولون أمروا بصدم

هذه الميول الطبيعية بالزهد والتقشف وحرمت عليهم جميع مقومات الاجتماع من مقابلة القوة بمثلها لما كان من أثره إلا تكوين جماعة من المتبتلة يعيشون ضعافا ويموتون أسرى سواهم من المتغلبين ، ولما قاموا بهذه الأعمال الجليلة من بناء مدنية فخمة وإقامة دولة عظيمة وحفظ ميراث العالم من العلم والحكمة ولانتهى أمرهم كما انتهى أمر كل طائفة مستضعفة مستكينة

اعتبر بعض الطاعنين فى الاسلام إباحة الحرب والتنازع من العيوب التى يجب أن يخلص منها كل وحى إلهى وغاب عنه (أولا) ان شريعة موسى كانت تبيح الحرب والتنازع على أشد درجاتهما حتى ورد فى التوراة أن موسى كان إذا غلب الأمة اجتاح أهلها ولم يبق حتى على حيواناتها وشريعته مع هذا معتبرة من الوحى لدى أكثر الطاعنين على الاسلام من هذه الوجهة (ثانياً) أن الحرب مظهر من مظاهر التنازع المعاشى وهذا التنازع لا يزال سنة إنسانية يسوق إليها فساد فى بنية الاجتماع ، فاذا حرمه الاسلام حرم ذويه الدفاع عن أنفسهم وبلادهم وقضى عليهم بالتلاشى والزوال . لأننا لا نزال نرى بأعيننا أن الأمم فى نزاع مستمر وان مدار الفوز فيه على القوى المسلحة وأن الحياة هى للحاصل على جميع أسباب الدفاع عن الحوزة

(الأصل الاسلامى التاسع) توحيد العالم فى دائرة المعاملات

يلاحظ الناظر فى الأديان السابقة على الاسلام أن الأثرة القومية ظاهرة فى تعاليمها ظهورا بينا وكثير منها حرم التعدى على الآخذين بها وأحله لمن عداهم من سائر الأمم . من هنا حدث التضاغن والتغابن بين أهل الممالك المختلفة وورث الناس هذه الأخلاق جيلا بعد جيل حتى ليكاد أحدهم يفضل أن يرى الحيوانات الكاسرة ولا يرى وجه رجل يخالفه فى معتقده

لا جرم تأثرت المعاملات بين هذه الأمم المتخالفة فى العقائد على نهبة قوة هذه التعاليم الصارة ومبلغ تأثيرها على أذهانهم فتعطلت المصالح المادية

وكثرت الغارات الجائرة . ونزع بعضها لابادة بعض لا لغرض سوى تطهير الأرض منها .

ولكن الاسلام لم يسلك هذه السنة بل رمى إلى توحيد العالم كله فى دائرة المعاملات الحيوية تاركا لكل أمة حريتها فى اعتقاد ما تريده من العقائد . فقرر لمتبعيه من هذه الوجهة أصولا فقال لهم ان اختلاف الأمم والنحل فى الاعتقادات أمر يقتضيه نظام الكون وأنه مراد لله تعالى وأنه من المحال جمع الأمم على عقائد واحدة فقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)

علم المسلمون بهذه الآية أن هذا الخلاف مراد الله تعالى لحكمة يعلمها هو وان الأمم لا تزال عليه حتى يأتيها أمر ربك فلم تغل مراجل الاحقاد فى صدورهم ولم تلتهب جذوة الأضغان فى نفوسهم بل تركوا ما لله لله وعملوا بقوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على اخراجكم أن تبروهم وتقسطوا إليهم)

أمر الله متبعى الاسلام بهذه الآية أن يبرروا ويقسطوا الى الاجانب عن دينهم الذين لم يقاتلوهم من أجل ملتهم ولم يخرجوهم من ديارهم . ثم أيد ذلك بقوله تعالى بعد هذه الآية . (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون)

بهذه الآيات لم يجد المسلم فى نفسه ما يجعله على الحقد على مخالفه فى الدين مادام لم يقاتله ليفتنه عن دينه ، بل إنه أمر بأن يعدل فى معاملته وبأن يبره والبر فوق العدل لانه يقتضى التفضل والاحسان

وقد دل تاريخ المسلمين فى جميع أدوارهم على تأصل هذه النزعة فى نفوسهم فلم يرو عنهم أنهم أبادوا ملة من الملل لغرض دينى ، أو اضطهدوا

طائفة من الطوائف بقصد اعتقادى بل سمحوا لجميع محكوميهم بممارسة أديانهم وتعليمها لذويهم وكانوا يحترمون آحادهم وجماعاتهم احترام العشير للعشير ولم يمنعوا نواقيس الكنائس والبيع أن تدق بجانب منائر المساجد وزاد الاسلام هذه العلاقات بالسماح للمسلمين بمؤاكلة مخالفيهم ومجالستهم ومؤاساتهم فى حزنهم ومشاطرتهم فى فرحهم وكان النبى صلى الله عليه وسلم أسوة أمته فى ذلك فقد روى عنه أنه نشر رداءه وأجلس عليه بعض زائريه من النصارى وثبت أنه كان راهناً درعه عند بعض يهود المدينة فى دين عليه ولم يخلص درعه إلا خلفاؤه بعد موته . وزاد الاسلام هذه العلاقات فأباح مصاهرتهم ولولا أنه خشى على النساء الفتنة لكان أباح أن تتزوج المسلمة من غير المسلم

لاجرم نشأ المسلمون نشأتهم الأولى والدين أقوى حاكم على شعورهم فلم يشاهد منهم ما يعابون عليه من جهة التسامح مع مخالفيهم ، ثم لما انتشر فيهم العلم ونبغ منهم المؤلفون والباحثون لم تكابد هذه النزعة فيهم أدنى انحراف بل زادوها رونقاً بما قاموا به من حماية علماء الملل الأجنبية وما والوه عليهم من الاقبال والاجلال حتى صار أطباء الخلفاء والقادة منهم مثل بختيشوع طبيب الرشيد والمأمون وغيره بين نصارى واسرائليين لا يعدون كثرة .

هذا الاصل الاسلامى يعتبر فى ذاته آية على حقية هذا الدين فان هذا التسامح الدينى لا يكاد يعرفه العالم إلى اليوم وأن أوروبا الحالية على ماحصلته من علم ومدنية لا يزال يرى منها جنوح عن مثل هذا المبدأ الكريم فى أحوال كثيرة

(الأصل الاسلامى العاشر) الاعتراف بناموس الترقى

ليس فيما بين أيدينا من الاديان التى سبقت الاسلام دين يرفع بالرقى

الانسانى رأساً أو يأبه بحصول الناس على ما ينفعهم فى أمر حياتهم الدنيوية وكل ما فيها أنها علقت أمر الدين كله على حادثة تاريخية أو موت زعيمها على شكل من الاشكال فهى تنظر للوراء فى جميع أوامرها ونواهيها بل طبيعتها تقتضى أن يكون الانسان بقلبه وشعوره ومراميه من أهل العصور الأولى . ولا بأس عليه بعد ذلك أن كان من حياته هذه فى أخس دركات القسوة والمهانة

لا جرم سادت هذه الأديان قروناً فلما ولد العلم وتأيدت دولته زالت من على سطح الأرض ولولا أوقاف محبوسة على قادتها لما وجدت لها ممثلا فى بلد متمدين اليوم

ولكن الاسلام خالف جميع هذه الأديان فى اعترافه بناموس الترقى واعتباره الانسان مسوقا لغايات من المدنية بعيدة لم ينلها إلى اليوم . وهو لاجل تقرير هذا الأصل فى أذهان متبعيه قطع كل علاقة بينهم وبين الأمم السابقة إلا من وجهة تاريخية فلم يعلق تعاليمه على حادثة ماضية ، ولم يبن أصوله على أمر سبق الزمن الذى نزل فيه بل قال عن العلاقة الموجودة بيننا وبين الامم السابقة : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)

قطع الأسلام بهذه الآية وأمثالها كل علاقة لهذه الأمة بما قبلها من حيث العقائد وقرر أن لكل أمة ما تكسب لا تسأل سابقتها عن لاحقتها ولا لاحقتها عن سابقتها

ولما كان ناموس الترقى فى نفسه ليس له مظهر إلا تقدم الانسان فى باحات العلم ومن هذا التقدم العلمى ينشأ التقدم الأدبى والمادى بجميع أشكاله قرر الاسلام ان العلم الذى لدى الأمم لذاك العهد نزر قليل لا يوصل إلى إدراك كبريات المسائل ولا يحل معضلات الامور فقال تعالى : (ويسألونك

عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) بعد أن قرر أن العلم الذى أوتوه قليل أراهم أن العلم دائم التجدد متواصل المدد فقال تعالى (وقل رب زدنى علما)

هذا الأصل يعتبر اعترافا صريحا بناموس الترقى وقد حقق المسلمون مؤداه فانهم لم يقصروا فى طلب العلم فى عصر من عصورهم بل هبوا هبة رجل واحد فأخذوا كل ما رأوه من علم نافع وصناعة محكمة وجمعوا بين مظاهر مدنيات الفرس والرومان واليونان والهنود

(الاصل الاسلامى الحادى عشر) تقرير أن الدين شرع لخير الناس ومصلحته لا لتسخيره واذلاله

غرس الإسلام فى نفوس ذويه أنه انما شرع لمصلحتهم ، وأنزل لترقيتهم وما العبادات التى فرضها الله على عباده ، والسنن التى أمر بها نبيه إلا وسائل لفوائد روحانية تأتى من ورائها وليست هى ذاتها مقاصد تطلب لنفسها ، بمعنى أن الصلاة وما ركبت منه من ركوع وسجود وما يسبقها من وضوء لم تشرع لذاتها بل لما تستتبعه من الفوائد الروحانية والامدادات الربانية وكذلك كل العبادات المشروعة والمناسك المفروضة قال تعالى : (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال فى بيان حكمة تشريع الصلاة : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقال فى بيان حكمة الحج (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله)

أين هذا من قوم يعتقدون إن لدين لم ينزل الا لتسخيرهم وإذلالهم . وإن الله يود منهم هذه العبادة لذاتها لا لنفع الانسان من طريقها . لاجرم أن مثل هذه الأمم تعتبر الأديان عبأ ثقيلا . فلا ترى مندوحة للتخلص منها وإلقاء نيرها إلا امست منها مسنهة حلوم الذين تمسكوا بها ، زارية بعقولهم فى تعويلهم عليها

(الأصل الاسلامى الثانى عشر) حرية البحث والنظر

أباح الاسلام لمتبعيه البحث والنظر فى الاصول الدينية ناهيك أنه طالب المتمسك بالدليل. وكره الايمان بالتقليد فكانت هذه الأباحة فاتحة رقى كبير فى الأفكار وثمراتها إذ لا يخفى أن الحرية فى البحث تؤدى الى تحاك الآراء ، وتنازع الافهام فتتجلى الحقيقة من خلال هذه المنازعات الأدبية بل تتأدى العقول الى باحات لاحد لها من العلوم الاجتماعية التى عنيها قوام الجماعة وحياة الأمة

لاجرم لم يلب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة ربه وينقطع مدد الوحى حتى أخذ المسلمون يعملون بهذا الاصل فى فروع العبادات ونظام المعاملات فنشأ الخلاف فى الآراء. ولكنه كان خلافا سليما محضا اذ كان الجميع يستندون على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فكان المتخالفون يعرض بعضهم آراءه على البعض الآخر فيحمى بينهم وطيس الجدال فان أقام أحدهم الحجة على أخيه صرفه عن رأيه والا بقى الاثنان على رأيهما ، لايؤديهما خلافهما الى المنابذة والملاجة

نشأت من هذه الاباحة فى البحث ميول أخرى كلها كانت ذات فائدة فى ترقية الأمة ، ودفع الجمود الفكرى عنها مثل الميل لتمحيص الأحاديث ومعرفة صحيحها من موضوعها والنظر فى التفسير وجمع الآراء المتباينة فيه ، ونقل اختلاف المأولين لمعانيه والجرى وراء استيعاب اللغة ليفهم على وجهه الحق وغير ذلك فلم تمض مائة سنة حتى رأينا المذاهب تعد بالعشرات فى الفقه وفروعه وإذا كان قد بقى منها أربع فما ذلك إلا لكثرة أتباعها وانتشار زعمائها فى أرجاء الأرض

وإذا كان المسلمون قد وقفوا من البحث عند هذا الحد وقنعوا بما جاء به أولئك الأربعة الكرام فليس ذلك لأن طبيعة الدين الاسلامى تستدعيه ولكن لتقصير المسلمين فى النظر وقصورهم عن لحاق شأو الاقدمين فى العلم

وهو تقصير وقصور رأوا نتائجهما الوخيمة وسيرونها ماداموا ملتاثين بهما

ومما يدل على أن وقوفهم عند هذا الحد تقصير ان اولئك الائمة الاربعة لم يحتموا على الناس الأخذ بمذاهبهم ولم يدعوا أنهم بلغوا الغاية مما تمس الحاجات اليه فى كل زمان ومكان بل اعترفوا بأن ماجاؤا به هو أقصى ماقدروا عليه وحظروا على متبعيهم الأخذ بما قالوا إلا بعد الفكر فى أدلتهم عليه فقال الامام الاعظم ابو حنيفة « حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى » وكان إذا أفتى يقول « هذا رأى أبى حنيفة وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب »

وكان الامام مالك بن أنس إذا استنبط حكما يقول لأصحابه « انظروا فيه فانه دين وما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال الامام الشافعى للربيع : « ياأبا اسحق لا تقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فانه دين »

وقال الامام احمد بن حنبل : « أنظروا فى أمر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عمى للبصيرة »

هذه أقوال الائمة الأربعة أنفسهم ومنها يتضح أنهم أفتوا بحرمة تقليدهم لمن لم يعرف دولتهم وقد استحال أمر المسلمين اليوم من الجمود أنهم يلومون من يسأل عن أدلة المجتهدين ويدعون أنه يجزىء أحدهم أن يفهم من أقوالهم أو من أقوال تلاميذهم

أنظر لهذه الاباحة التى قررها الأسلام للنظر وتأمل فى أديان سبقته كان قادتها يحرقون بالنار كل من يتجارى على فهم يخالف فهمهم ثم قارن بين أئمة هذا الدين فى تحريمهم الأخذ بأقوالهم بدون نقد وبين الحظر العظيم الذى كان يصدر من قادة تلك الأديان على الناس أن ينظروا فيما يصدرونه

من الأوامر مدعين أنها والأوامر الالهية فى مستوى واحد ، يجب أن ترتفع عن كل نقد وتمحيص

هذه هى الأصول الاثنى عشر التى نراها من خصوصيات الاسلام قد غالب بها جميع العقائد التى كانت منتشرة على عهده فغلبها وحل من النفوس والعقول محلها ولا يزال يحل بما بقى منها فى أعماق الصدور ويختلط بهوى القلوب

كل مافى الانسان من تعاليم إنما تتفرع عن هذه الأصول وتشتق منها كاحترام الغرباء والحنان على الاسراء وصيانة حقوق الضعفاء

(لماذا انحط المسلمون وفيهم هذه الأصول ؟) إن هذه الأصول الاثنى عشرة التى قررناها تصلح لاقامة أكرم مدنية فى العالم وتؤلف أشرف مجتمع فيه بل هى أصول تدأب العلوم الكونية والاجتماعية على غرسها فى النفوس وتعد نفسها من أجلها أرقى من أرقى فلسفة فى المتقدمين ، فلماذا انحط المسلمون وهى أصولهم المقررة فى دينهم ، وبأى علة تدهوروا فى تيهور الاضمحلال وأصبحوا حيارى لايجدون مخلصا مما وقعوا فيه ؟

الجواب ليس بالأمر الصعب . ذلك انهم انحرفوا عنها ، وتنكبوا طريقها بل دابروها كل المدابرة وعادوها جد العداء وعملوا على خلافها جهد طاقتهم كأن حظهم من الدين استحال إلى مناقضتها والعمل بما يعاكسها .

واليك التفصيل :

قلنا إن أول الأصول الاسلامية التخليص بين الانسان وخالقه ، فهل بقى المسلمون على هذا الأصل ؟ لا

أنهم اتخذوا قبور صالحيهم قبلة يتوجهون إليها وبنوا عليها القباب واتخذوا فوقها المقاصير ورفعوها عن الحد الشرعى ووضعوا عليها العمائم وأشعلوا فيها السرج وقد ورد فى السنة النهى بالنص الصريح عن إدخال القبور فى المساجد وعن إيقاد السرج عليها ، حتى لا تفتتن العامة فيعبدوها ويتخذوا

من فيها وسطاء بين الله وبين عباده . فترى دهماء المسلمين اليوم لا يدعون الله وحده ولا يرفع أحدهم يده إلا مستشفعاً بواحد من أولئك الصالحين ومتخذا إياه وسيلة إلى الزلفى من الخالقه

نعم إن المسلمين لم يصلوا من هذه الوجهة إلى مثل ما وصل اليه سابقوهم من أهل الملل الأولى ولكنهم حادوا عن أصلهم الأول بمالا يتفق مع روحه الخالصة النقية وزادوا انحرافهم ضوضاء بما يتخذونه من الاحتفالات حول تلك القبور فيما يسمونه بالموالد فتراهم شيعاً متحلقين إلى حلقات يذكرون الله بأصوات منكرة وبالفاظ لاتفهم صاخبين مصفقين متمايلين مضطربين فاذا فرغوا من ذلك ساروا فى الطرق حاملين الرايات والطبول وطافوا شوارع المدينة على حال لو رآها النبى صلى الله عليه وسلم أو أحد خلفائه لحدهم عليها حد المشاغبين ، المتلاعبين بالدين

يحصل كل هذا والعرفة بحقيقة الدين يملئونهم عليها ويمدونهم فيها ، بعضهم جرا لمنفعة تلحقه منهم ، والبعض الآخر تقصيراً منه فى أداء وظائفه والحكومة لا تستطيع أن تمد إلى أولئك المتلاعبين يدا مادام حفظة الدين أنفسهم يقرونها ويعملون على تأييدها

بهذا الانحراف انحرفت القلوب عن حكمة ذلك الأصل الكريم ، ولم تعد تستفيد من آثارها عليها ، وظهر المسلمون من هذه الوجهة بمظهر الأمم المتبربرة الذين جاء الاسلام بالنعى عليهم والأخذ على أيديهم

أما الاصل الاسلامى الثانى وهو المساواة العامة فقد صدف عنه المسلمون أيضاً فقسموا الناس قسمين قسم سموهم رجال الدين وقسم سموه أهل الدنيا فابقوا الأولين حيث هم قطعوهم عن الاعمال الدنيوية وقصروهم على خدمة المساجد وتعليم الدين ليس فى طبيعة الاسلام ما يسمح بوجودهم فلم يبلغوا شأو نظرائهم فى الملل الاخرى لامن ناحية التأثير على الارواح ولامن

جهة قيادة العامة وتوالت على المسلمين حكومات أقرت هذا التقسيم وأمسكت يدها عن ترقية شؤونهم فبقوا حيث كانوا منذ مئات من السنين يعتبرون من جهة أئمة الدين وحملة شرائعه وليس لهم من جهة أخرى ما لغيرهم من السلطة فصار هذا التقسيم أضر على المسلمين مما كان منه فى الامم السالفة . لان تلك الامم كانت فيها وظائف رؤساء الدين منصوصاً عليها فى ذات الدين فلما نشأت السلطة الدنيوية وقويت شوكة الشكوك وتنازعت السلطان قياد الامم حصلت تلك الامم من ذلك التنازع تجارب نفعتها فى تحديد السلطة الدنيوية وردها إلى ما يوافق مصلحتها فيما بعد ولكن نشأ هذا التقسيم فى المسلمين ضد طبيعة الدين بمحض ارادة الحاكمين فلم يكن لطائفة رجال الدين دائرة اختصاص يدافعون عن حدودها وكانوا طول عهدهم العوبة فى يد القادة الدنيويين فلم تشعر الامة من وجودهم إلا برؤية ذواتهم ولم تتدافع الطائفتان لتتعلم بتدافعهما موضع مصلحتها منهما فلم تستفد مثل ذلك الدرس الاجتماعى الذى أخذته الأمم الأخرى ولم تتهيأ فى وقت من اوقاتها لأحداث مثل ما أحدثته من الانقلابات العمرانية التى كان لها أكبر أثر فى انتظام شؤونها القومية

أما من جهة الأصل الاسلامى الثالث وهو تقرير مبدأ الشورى فى الحكومة فقد انحرفت عنه الأمة من زمان بعيد أى من عهد معاوية بن أبى سفيان حين ناهض الخليفة الرابع ولم يعبأ باجماع أهل الحل والعقد فى إسناد الخلافة إليه فأدرع بالقوة القاهرة لتحقيق أمانيه وأوجب على الناس طاعته بقوة السلاح وعهد بالأمر لابنه يزيد وأخذ له البيعة بالأرهاب والرشا فأعطى السيف من استعصى ، وبذل المال لمن مد يده ، حتى استتب له الأمر فنجمت نواجم الفتن الداخلية فخرج عليه الحسين ابن على بن أبى طالب بالكوفة وعبد الله بن الزبير بمكة ونشبت الحرب الاهلية ثم

استقر الأمر لبنى أمية حيناً من الزمان ثم ظهر دعاة بنى العباس فأوغلوا فى خصومهم قتلا وسفكا حتى أسندوا الأمر لأنفسهم فذهلت الأمة عن وجودها بهذه الحروب المتوالية واستكانة للغالب الفاتح وأخطأ العباسيون فى إحاطة أنفسهم بشذاذ الآفاق من الأتراك فصارت الخلافة ألعوبة بأيديهم وقامت فى كل صقع من أصقاع المملكة دولة يرأسها متغلب مغتصب وصارت البلاد بين ثائريهم فى معارك مستمرة حتى سطا عليهم المغوليون فأسقطوا الخلافة العباسية التى لم يكن لها حظ من هذه الوظيفة غير الاسم فضاع أصل الشورى واستحال الأمر الى الاعتماد على القوة وعجز المركز العام عن حفظ وجوده فلم تقف المطامع عند حد واستمر المسلمون فى حركتهم القهقرية حتى ورث الغرب أكثر أصولهم فاشعروا إلا وهم محاطون بالامم الاستعمارية من كل مكان .

أما من جهة الأصل الاسلامى الرابع وهو تعليق السعادة والشقاوة فى الحياة الأخرى على الأعمال والصفاة الذاتية لا على الشفاعات والقرابات فقد كابد عين الانحراف الذى كابده ما تقدمه من الأصول . ذلك أن دهماء المسلمين بما تأسروا به من مطالعة الكتب التى وضعها جهلة المؤلفين من أهل البطالة والتعطيل وقر فى نفوسهم أن المكانات الأخروية تنال بمجرد قراءة بعض الأدعية والهمهمة ببعض الألفاظ وقد نقل أولئك المؤلفون من الأحاديث الموضوعة والآثار المكذوبة ما يكفى لتضليل العقول عن الحقائق الروحانية المقررة

انتشرت هذه الكتب بين المسلمين فصرفتهم عن حقائق الدين وموهت عليهم الأباطيل وصورت لهم العالم الروحانى تصويراً خيالياً وجعلت زمامه بأيدى أفراد من المقربين حاكمة بأن من انتمى إليهم فاز بالحور والجنان ، ولو كان

عليه من الذنب ما أتعب الملكين . وإن من فاته الملاذ بهم . فاته الخير كله ووكل إلى نفسه . فمالت نفوس العامة إلى هذا التمويه ونسوا قوله تعالى: (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به) وضاع فى نظرهم معنى الثواب والعقاب فى الآخرة واضطرب فى وهمهم ميزان العدل الالهى فبطلت حكمة الترغيب والترهيب وفقدت العبادات والمجاهدات ثمرتها المقصودة منها واستحال الأمر إلى أمان كاذبة . وأوهام باطلة ولا تسل عما ينبنى على هذا الضلال من ضياع حكمة الدين وخروج أهله عن سننه القويم

أما من جهة الأصل الاسلامى الخامس وهو الاعتراف بحقوق العقل والعلم فقد لقى من أعراض المسلمون ما لقى سابقوه من الأصول كيف لا وقد راجت فيهم الحكايات الميتلوجية مما جمعه جهلة المؤلفين من أساطير الاولين وخرافاتهم ، وما رووه عن الأفراد منهم فانحطت قيمة العقل واتسعت أمامهم دائرة الممكنات حتى شملت المستحيلات ، واستعدت الأذهان لقبول كل ما يقال ولو كان فيه هدم لأصول الشريعة ثم زادوا فى هذه الطريقة غلو فحرموا الاعتراض ما يروى من تلك المناقضات للعقل ، وأوعدوا من يتجارى على تكذيبها بالحرمان من الرحمه الالهية والاستهداف لسوء الخاتمة فلم يبق للآيات الداعية إلى تعقل الأمور وتدبرها بعين النقد أثر فى نفوس المسلمين وتبع ذلك ما يستلزمه من انحطاط مداركهم ووقوفهم موقف العاجز أمام الحقائق الساطعة

أما الأصل الاسلامى السادس وهو المؤاخاة بين الدين والمدنية فقد انحرف به المسلمون انحرافاً يناسب انحرافاتهم فى كل ما عداه فان الحروب التى وقعت بين أمراء المسلمين فى القرن الثانى وما يليه صرفت الأذهان عن نعم الحياة الارضية ولفتتها إلى ما أعد لها فى الحياة الاخروية . فراجت الكتب الزارية على الدنيا ، الناعية على أهلها ولوعهم بها ، وأكثر المؤلفون

من ايراد الحكايات عن الزهاد والمتصوفة فأشربت نفوس المسلمين الاستكانة والذلة وتوجهت إلى إيثار الزهد والاقلال . وإن كان مثل هذا الزهد القسرى لا يعد فضيلة فاكتسبت نفوسهم صفات المستخذين من الأمم وتطرفوا فعدوا مظاهر المدنية من فاتنات النفوس وقاطعاتها عن كمالها فلما ظهرت لهم المدنية الأوروبية بما حملت من سحر وابداع صرحوا بأن لهم الأخرى ولغيرهم الدنيا وأصبحت تلك عقيدة بعضهم لليوم . وفى هذا التصريح ما فيه من إعطاء الدنية والاقرار بالعجز والركون للسكينة

أما الأصل الاسلامى السابع وهو تنبيه الانسان بأن للوجود الانسانى سننا لا تتبدل فقد انقلب فى نظر المسلمين إلى ضده ، لأنهم لما اعتمدوا فى حياتهم على الأوهام والأمانى وعولوا فى تصرفاتهم على الخرافات والاضاليل الموضوعة ذهلوا عن النظر للواقع المحسوس وشغلهم الطيران فى جواء الخيالات ، عن التدبر فى الحقائق الراهنة فلم يتحروا الأسباب ، ولم يتلمسوا وجوه النجاة وكأنه وقر فى نفوسهم أن تبدل حالهم إلى أحسن حال يجىء بمحض الدعاء أو بحادثة غير منتظرة . فتراهم كلما ألم بهم ألم من حال نظروا إلى السماء ولم يزيدوا عن الحوقلة والاسترجاع فراجت عليهم الكتب الرمزية الدالة على مستقبل الحوادث كالجفر واعتمد ملوكهم على حركات الأفلاك فاسترشدوا بالمنجمين واستهدوا بالمضللين من المتنبئين فضل سعيهم فى الحياة الدنيا . فلما احتك بهم الغربيون وجدوا منهم أمماً على غير هدى لا بصيرة لها بدين ولا دنيا فسهل عليهم قيادهم ولولا أن الاستعمار العصرى ترقت أساليبه وصار للعدل فيه حظ كبير لبادت أكثر الأمم الاسلاميه كما بادت أمم أمريكا الشمالية والجنوبية تحت سيطرة المستعمرين

أما الأصل الاسلامى السابع وهو لفت الانسان إلى نظام الطبيعة وتوجيه نظره لأسرارها الخفية ليستفيد منها لتغذية روحه وعقله ونظامه الاجتماعى

فقد حاد عنه المسلمون إذ قصروا العلم عن العلوم الكلامية وصار كل اهتمامهم فى المجهودات العقلية موجها الى تفهم كلام الأقدمين ، وياليتهم توسعوا فى هذا الباب فجمعوا كتب آبائهم فى الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك وجعلوا لها حظاً من عنايتهم بل اقتصروا على علوم الكلام وتفرغوا لها فصاروا غرباء حتى عن تحقيقات أسلافهم فى الكون فلم ينبغ فيهم واحد كابن سينا أو ابن رشد أو الفارابى وانحطت مدركاتهم على الكون حتى لم يعد فيهم من يبحث عن قوى أجسادهم وطبيعة أرضهم وما برح الانحطاط آخذاً مجراه حتى جاءتهم العلوم الأجنبية بلغاتها الاعجمية فظنوها كفراً فتألبوا على معارضتها وأصبح علم الطبيعة فى نظرهم من الرجس الذى لا يصح أن يقربه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر . فتأمل رحمك الله فى هذا الانحراف عن سنن القرآن وأصول الاسلام وقل لى إلى أى حضيض لا تسقط المجتمعات الاسلامية من الانحلال وفساد الكيان

فبينما نرى الامم قد وصلت من العلم الطبيعى إلى حيث يستخدمون قوى الماء والهواء فأصبحوا يقطعون القفار المترامية الاكناف فى الساعات المحدودة ويحلقون فى الجواء الى أبعد مما تصل إليه النسور والعقبان ، تجد المسلمين لا يزالون من علومهم الكلامية فى حال مقيم مقعد . وقد أدركهم الانحطاط فى ذات تلك العلوم فقنعوا من كتبها بما لا يوصل إلا الى انضاب معين القرائح ووقف حركة الافكار

أما الاصل الثامن وهو الاعتراف بحقوق ميول الانسان وعواطفه فقد خبطوا فيها على غير بصيرة تبعاً لانحرافهم فى الاصول السابقة وهل يميز بين الميول الحقة والوهمية ، وبين العواطف الحسنة والرديئة إلا العالمون بأسرار العلوم النفسية وأنى لهم ذلك وتلك العلوم فرع من العلوم الطبيعية وهى قابلة للترقى الى غير حد وانى ليؤلمنى أن أذكر أن ليس فى معهد من معاهد العلوم

الاسلامية من يدرس هذا الفرع العلمى أو من يدور بخلده أنه من المعارف الضرورية .

أما الاصل الاسلامى التاسع وهو العمل على توحيد العالم فى دائرة المعاملات فقد أصابه ما أصاب سائر الأصول إما من عدم الباحثين فى هذا الامر أو لعدم امكان تنفيذه بما دخل فيه المسلمون من الجمود فانهم لذهولهم عن جميع أصولهم المحيية صار أمرهم ليس فى أيديهم وأصبحت شؤونهم الخاصة والعامة تبعاً لشؤون سواهم . فسواء بحثوا فى مثل هذا الشأن أو لم يبحثوا فيه فليس لهم حول على عمل تمليه عليهم الفكر الناضجة والآراء الاصيلة

فالمسلمون اليوم إذا كانوا لا يبحثون هذا التوحيد فى حدوده الحافظة لوجودهم فهم مقودون قسراً للفناء فى أجساد الامم المحيطة بهم

أما الاصل الاسلامى العاشر وهو الاعتراف بناموس الترقى فقد كابد إنحرافا عظيما فالمسلمون بحالهم وقالهم اليوم يميلون للرجعى إلى دور من أدوارهم الماضية فقادة أرواحهم يحلمون باعادة مثل عصر بنى العباس أوسواه مما تكون المدنية الاسلامية فيه بلغت شأوها إلا بعدوهم مع محاولتهم الرجعى يعملون على عكس الاصول التى رقت تلك الدول . فان أسلافهم فى العصر العباسى نهضوا نهضتهم من طريقها الطبيعى فترجموا الكتب الطبيعية التى كانت لليونان والفرس والهنود الى لسانهم وأخذوا فى دراستها وتفهمها حتى برعوا فيها ولم يكفهم ذلك بل رحلوا الى بلاد تلك الامم وتعلموا لغاتها وبحثوا فى مجتمعاتها ونقبوا فى آثارها وتعرفوا نباتاتها وحيواناتها ونقلوا لبلادهم كل ما توسموا فيه الفائدة والمصلحة ولكنا اليوم نتمنى الرجعى الى مثل عهد من عهودنا السابقة ولم نعمل فى هذا السبيل عملا يؤدى اليه كأننا نزعم أن ذلك يتم بمجرد تمنيه

أما الأصل الاسلامى الحادى عشر وهو تقرير أن الدين انما شرع لفائدة

الانسان ومصلحته لا لتسخيره واذلاله فلم يعد أحد يبحث فيه فترى ألوفا من المعلمين يعلمون الدين فى المساجد والمعاهد العلمية مكتفين منه بكيفية الوضوء والصلاة والحج والزكاة ولم يتعرض واحد منهم لبيان الحكمة المقصودة من هذه العبادات حتى وقر فى نفوس العامة والخاصة أنها تطلب لذاتها لا أنها وسائل لغيرها . لذلك يكتفى أحدهم من الصلاة بالركوع والسجود على أسرع ما يكون كأنه مسخر لأداء حركات معدودة لا مزية فيها . وان صام أمسك عن الأكل طول نهاره صاخباً لاغياً مشاغباً كأنه يؤدى سخرة حتى إذا قال المؤذن حى على الصلاة أقبل على مائدته بكليته فلا يزال يملأ وعاءه حتى يعجز عن الحركة ثم يأخذ فى التنقل من ناد إلى ناد حتى يجىء وقت السحور فيعاود الأكل جهد استطاعته وهكذا فلا ينسلخ شهر الصوم إلا وفى معدته أثر سىء من ذلك النهم الذى سماه صوماً . ولكن لو كان قادة العقائد وقفوا الناس على حكمة العبادات وعرفوهم أنها رياضات لتحصيل الكمال الروحى وتوسعوا فى هذا البحث الخطير بما يليق به من البيان لكان حظ المسلمين منها غير حظهم اليوم .

أما الأصل الثانى عشر وهو اطلاق حرية البحث لأولى البصر بالدين فقد استحال إلى عكسه فوقر فى النفوس اليوم أن ليس فى الامكان أبدع مما كان وأن الأمة يكفيها أن تكون عالة على أسلافها فى جميع الكليات والجزئيات ليس فى الأمور العبادية فقط بل وفى جميع المسائل الشرعية مما يختص بالمعاملات ولم يكفهم هذا التضييق حتى قروا أنه لا يجوز لانسان أن يخلط بين المذاهب فيقلد إمامين فى وقت واحد فتقرر العمل بمذهب أبى حنيفة وحده وترك ما عداه من المذاهب وفى هذا من الحجر على أمة برمتها ما فيه . فبينما نرى للأمم الأوربية جماعات تشريعية تواصل العمل فى سن النظامات وتقنين القوانين وتنقيح الأصول وتجديد مارث منها وبطل موجبه ، ترى المسلمين

جامدين على شكل واحد منها لا يبغون عنه حولا . فلو كان فى طبيعة دينهم ما يحرم عليهم النظر والتجديد لكان لهم بعض العذر فما بالهم ودينهم يحضهم على النظر ويزعهم عن الوقوع فى الجمود ، وأئمتهم قد تبرأوا ممن يأخذ بأقوالهم بدون نقد وقرروا أن باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة

هل خفى عن المسلمين اليوم أن الحوادث تتجدد وأن النظامات تبلى كما تبلى الأثواب ، وأن القوانين تتطور فى حالات شتى لتتفق مع مصلحة الأمة ؟

انتهى

١٥٣ - ١٦٧

PUB LIBRA

DATE DUE

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00511203